

فتدبر القرآن إن رمت الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الخير الكثير

في قبسات من

كتب التفسير

(الملك - الناس)

ابو سلمان سراج الاسلام حنيف

المكتبة القاسمية

رستم ٥ شارع امبيله ٥ مردان



فتدبّر القرآن إن رُمت الهدى فالعلم تحت تدبّر القرآن

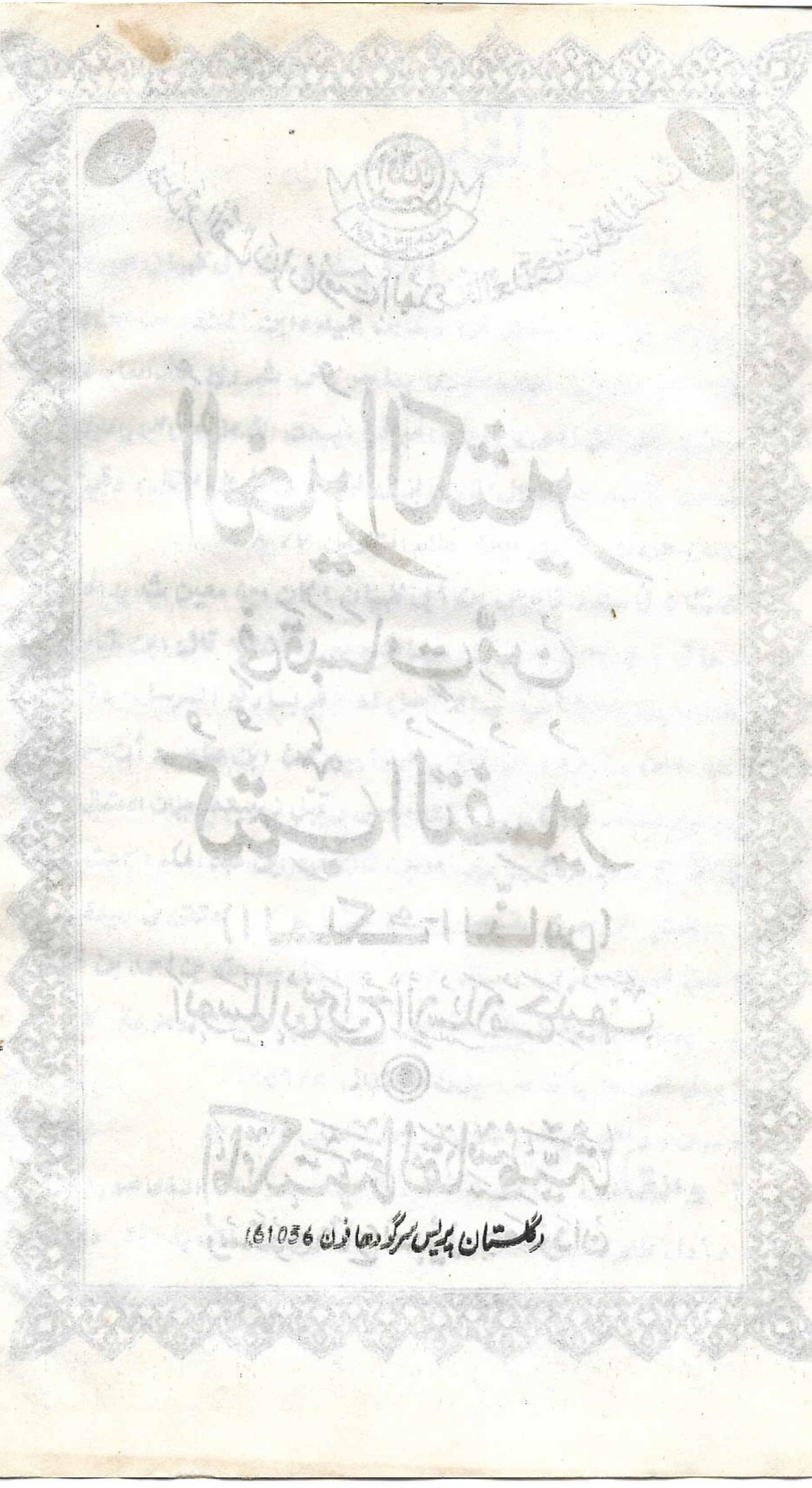
الخير الكثير

في قبسات مّن كتب التفسير

(الملك - النّاس)

ابو سلمان سراج الاسلام حنيف

المكتبة القاسمية
رستم ○ شارع امبيله ○ مردان



(گلستان پریس سرگودھا فون 61036)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إيّاك نعبد وإيّاك نستعين وبمعونتك تنبلج الحقّ ويستبين ،
اللهم صلّ على نبيك العربي الصادق الأمين ، وعلى
جميع الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه
أولى النهج القويم ، ما صدحت الورق
بشجوها على شجرها الوارق العميم

وبعد :

فقد لخصت في هذا المختصر
مشكلات القرآن ، على غاية من البيان
توخيّاً للتفهيم ، والله تعالى ينفع به انه هو
البرّ الرحيم . رب يسّر وأعِن . وسهّل وَبَلِّغْ .
وصلِّ على نبيك محمد ؛

الملك

فضلها :

روى الترمذي عن ابن عباس قال : ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خِباءه على قبر وهو لا يحتسب أنه قبر ، فاذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : ضربت خِبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فاذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : هي المانعة ، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر . (ابن كثير ٤/٣٤٥ ؛ القرطبي ١٨/٢٠٥ ؛ روح المعاني ٢٩/٢ ؛ الترمذي ٢/١١٧)

قلت : فيه يحي بن عمرو بن مالك النُكري ، قال فيه ابن معين وابو زرعة وأبو داود والنسائي والدولابي : ضعيف ، وكذّبه حماد بن زيد ، وقال الامام أحمد : ليس بشيء وقال الساجي : منكر الحديث (التهذيب ١١/٢٦٠ ، الميزان ٤/ ٣٩٩) قال الحافظ الذهبي : ومن مناكيره : ...... عن ابن عباس : ضرب بعض الصحابة خباء على قبر ، ولا يعرف أنه قبر ، فاذا فيه انسان يقرأ تبارك ...... الحديث - (ميزان الاعتدال ٤ / ٣٩٩)

١ **بيده الملك :** أي : هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا مُعَقِّب لحكمه ولا يسأل عمّا يفعل لقهره وحكمته وعدله (ابن كثير ٤/٣٤٩)

٢ **خلق الموت والحيات :** قيل المعنى خلقكم للموت والحياة يعني : للموت في الدنيا والحياة في الآخرة ، وقدّم الموت على الحياة ، لأن الموت إلى القهر أقرب ، كما قدّم البنات على البنين فقال : يهب لمن يشاء إناثاً ، وقيل : قدّمه لأنه أقدم ، لأن الاشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنطفة والتراب ونحوه (القرطبي ١٨/ ٢٠٦)

٣ **ايكم أحسن عملاً** : أى : خيرٌ عملاً كما قال محمد بن عجلان ولم يقل : أكثر عملاً (ابن كثير ٤ / ٣٤٦) أى : أصوبه و أخلصه فيجازيكم على مراتب متفاوتة حسب تفاوت مراتب أعمالكم (روح المعانى ٢٩ /٥)

٣ **ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت** : والمعنى : ماترى فى خلق الرحمن اعوجاج ولا تناقض ولا تباين ، بل هى مستقيمة مستوية دالة على خالقها ، وإن اختلفت صوره وصفاته (القرطبى ١٨ / ٢٠٨)

٤ **ينقلب اليك البصر خاسئًا** : أى : خاشعًا صاغراً متباعداً عن أن يرى شيأً من ذالك ، يقال : خسأت الكلب أى : أبعدته وطردته ، خسأ الكلبُ بنفسه ، يتعدّى ولا يتعدّى ، وانخسأ الكلب أيضًا ، وخسأ بصرهُ خَسْئًا وخسوءًا أى : سَدِر (أى : لم يكد يبصر) ومنه قوله تعالى : ينقلب اليك البصر خاسئًا وقال ابن عباس : الخاسئُ : الذى لم يرما يهوى . (القرطبى ١٨ / ٢٠٩)

٤ **وهو حسير** : أى : قد بلغ الغاية فى الإعياء ، فهو بمعنى فاعل من الحسور الذى هو الإعياء ، ويجوز أن يكون مفعولاً من حسره : بُعدُ الشيئ ، وهو معنى قول ابن عباس ، ومنه قول الشاعر :

من مدّ طرفاً الى ما فوق غايته

ارتدّ خَسْآنَ منه الطّرفُ قد حَسرا

يقال : قد حسر بصره يَحْسر حسوراً أى : كَلَّ وانقطعَ نظره من طول مَدًى وما أشبه ذالك ، فهو حَسِير و محسور أيضاً (القرطبى ١٨ / ٢١٠)

٥ **وجعلناها رجومًا** : أى : جعلنا شُهُبَهَا ، فحذف المضافُ دليله : إلّا مَن خَطِف الخَطْفة فأتبعه شهاب ثاقب (الصافات ٣٧ / ١٠) وعلى هذا فالمصابيح لاتنزول ولايرجم بها ، وقيل : ان الضمير راجع الى المصابح على أن الرّجم من أنفس الكواكب ، ولا يسقط الكوكب نفسه ، انما ينفصل منه شيئٌ يرجم به من غير أن ينقص ضوءه ولاصورته ، قاله أبو على (القرطبى ١٨/ ٢١١)

١٢ يخشون ربهم بالغيب : أى : يخافون عذابه غائبًا عنهم ، أو غائبين عنه ، أو عن أعين الناس غير مرائين أو بما خفى منهم وهو قلوبهم (روح المعانى ٢٩ / ١٤)

١٦ أأمنتم مَن فى السّماء : قد تضع العرب (فى) موضع (على) قال الله تعالى : فسيحوا فى الأرض (البراءة ٩/ ٢) ؛ أى : على الارض. وقالَ : ولأصلبنّكم فى جذوع النخل (طه ٢٠/ ٧١) أى : على النخل ؛ وقال : فامشوا فى مناكبها (الملك ٦٧ / ١٥) أى : على مناكبها ، فكذالك قوله : مَن فى السّماء الملك ٦٧/ ١٦ ، ١٧) أى : مَن على العرش ، كما صحّت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (مختصر العلو للعلى الغفار / ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٨٢) والأخبار فى هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة ، مشيرة الى العلو ، لايدفعها إلّا ملحد أو جاهل معاند (القرطبى ١٨/ ٢١٦)

٣٠ مَعين : أى : ظاهر تراه العيون ، فهو مفعول ، وقيل : هو من مَعَن الماء أى : كثُر ، فهو على هذا فعيل (القرطبى ١٨ / ٢٢٢ ؛ روح المعانى ٢٩ / ٢٥)

القلم

١ نٓ : أخرج ابن جرير ٢٩/٩ بسنده عن ابى ظبيان عن ابن عباس وكذا السيوطى فى الدر المنثور عن عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن جريج: اول ما خلق الله من شيئ القلم فجرى بما هو كائن ثم رفع بخار الماء فخلقت منه السماوات ثم خلق النون (أى: الحوت) فبسطت الأرض على ظهر النون فتحركت الأرض فمادت فأثبتت بالجبال، فان الجبال لتفخر على الأرض، قال: وقرأ: ن والقلم وما يسطرون، وأنظر ايضًا معالم التنزيل ٧/ ١٢٨.

قلت: فى سنده قابوس بن أبى ظبيان، كان ابن معين شديد الحط عليه، قال ابوحاتم: لا يحتج به، قال النسائى: ليس بالقوى، قال ابن حبان: ردئ الحفظ ينفرد عن أبيه بما لا أصل له، فربما رفع المرسل، وأسند الموقوف، ومن مناكيره: عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرج بين فخذى الحسن وقبل زبيبته (ميزان الاعتدال ٣/ ٣٦٧) وفيه أيضًا ابن جريج: عبد الملك بن عبد العزيز، قال فيه ابن عبد الحكم: سمعت الشافعى يقول: استمتع ابن جريج بتسعين إمرأة حتى أنه كان يحتقن فى الليلة بأوقية شيرج طلبًا للجماع (تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٠، ١٧١) قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قال أبى: بعض هذه الأحاديث التى كان يرسلها ابن جريج موضوعة، كان ابن جريج لايبالى من أين يأخذها (ميزان الاعتدال ٢/ ٦٥٩)

قال ابو حيان: لا يصح شيئ من ذالك (البحر المحيط ٨/ ٣٠٧)

١ **والقلم**: أقسم بالكتاب وآلته، وهو القلم الذى هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذى جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحى وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد فى

المعاش والمعاد، فوطدت (أى: قويت وثبتت) به الممالك وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظا تشفى مواعظه القلوب من السقم، وطبيبا يبرئ بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأرقام تدبر الأقاليم وتساس الممالك. والقلم لسان الضمير يناجيه بما استترق الأسماع فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود من الوشي المرقوم ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم، والأقلام نظام الأفهام، وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان، وتولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت، والأقلام متفاوتة في الرتب:

١- فأعلاها وأجلها قدرا قلم القدر السابق الذى كتب الله به مقادير الخلائق، كما في سنن أبى داود عن عبادة الصامت قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب وما أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، واختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟ على قولين، ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمدانى: أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قدّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام، عرشه على الماء، فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا، ولا يخلو قوله: إن أول ما خلق الله القلم إلى آخره، إما أن يكون جملة أو جملتين، فإن كان جملة — وهو الصحيح — كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: اكتب، كما في لفظ: أول ما خلق الله القلم قال له اكتب، بنصب أول والقلم، فإن كان جملتين وهو مروى برفع أول والقلم، فيتعين حمله على

أنه أول المخلوقات من هذا العالم، ليتفق الحديثان، إذ حديث عبد الله بن عمر صريح فى أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفى اللفظ الآخر: لما خلق الله القلم قال له: اكتب، فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير انه القلم الذى أقسم الله به.

٢- القلم الثانى: قلم الوحى، وهو الذى يكتب به وحى الله الى انبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، والعالم خدم لهم، واليهم الحل والعقد، والأقلام كلهم خدم لأقلامهم، وقد رفع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء الى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام (أى: صوتها اثناء الكتابة) فهذه الأقلام هى التى تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الامور التى يدبر بها أمر العالم العلوى والسفلى.

٣- والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله، وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضا حاكم غير محكوم عليه، فاليه التحاكم فى الدماء والأموال والفروج والحقوق، وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذى حكم به بين عباده، وأصحابه حكام وملوك على أرباب الاقلام، وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

٤- والقلم الرابع: قلم طب الأبدان، التى تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد اليها صحتها المفقودة وترفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم الأديان، وحاجة الناس الى اهله تلتحق بالضرورة.

٥- القلم الخامس: قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياس الملك، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، والمشاركون الملوك فى تدبير الدول، فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعايا هم.

٦- القلم السادس : قلم الحساب ، وهو القلم الذي تضبط به الأموال ، مستخرجها و مصروفها ومقاديرها ، وهو قلم الأرزاق ، وهو القلم الكم المتصل والمنفصل ، الذي تضبط به المقادير وما بينهما من التفاوت و التناسب ، ومبناه على الصدق والعدل ، فاذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة .

٧- القلم السابع : قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا وتراق به الدماء (أي : يحكم بالقتل) ، وتؤخذ به الأموال والحقوق وتنقطع به الخصومات ، وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص ، فهذا له النفوذ واللزوم ، وذلك له العموم والشمول ، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته وبالعدل فيما يمضيه وينفذه .

٨- القلم الثامن : قلم الشهادة ، وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق وتصان عن الإضاعة ، وتحول بين الفاجر وإنكاره ، ويصدق الصادق ويكذب الكاذب ، ويشهد للمحق بحقه وعلى المبطل بباطله ، وهو الأمين على الدماء والفروج والأموال والأنساب والحقوق ، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد ، وباستقامته يستقيم أمر العالم ، ومبناه على العلم والكتمان .

٩- القلم التاسع : قلم التعبير ، وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره وما أريد منه ، وهو قلم شريف جليل مترجم لوحي المنامي ، كاشف له ، وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين ، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته وأمانته وتحريه للصدق والطرائق الحميدة والمناهج السديدة مع علم راسخ وصفاء باطن ، وحس مؤيد بالنور الإلهي ومعرفة بأحوال الخلق وهيئاتهم وسيرهم ، وهو من ألطف الأقلام وأعمها جولانًا وأوسعها تصرفًا واشدها تثبتًا (أي : تعلقًا) بسائر الموجودات : علويها وسفليها ، وبالماضي والحال والمستقبل ، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه .

١٠- القلم العاشر : قلم تواريخ العالم ووقائعه ، وهو القلم الذي تضبط

به الحوادث وتنقل من أمةٍ إلى أمةٍ، ومن قرنٍ إلى قرنٍ فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه فى الخيال، وينقشه فى النفس، حتى كأن السّامع يرى ذالك ويشهده، فهو قلم المعاد الرّوحانى، وهذا القلم قلم العجائب، فانه يعيد لك العالم فى صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك.

١١ـ القلم الحادى عشر: قلم اللغة وتفاصيلها من شرح معانى الفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها وما يتبع ذالك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها على المعانى وكيفيه الدّلالة، وهو قلم التعبير عن المعانى باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها، وهذا القلم واسع التصرف جدًّا بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

١٢ـ القلم الثانى عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين ورفع سنة المحقين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ودخولهم فى الباطل، وهذا القلم فى الأقلام نظير الملوك فى الأنام، وأصحابه أهل الحجة، الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم، وهم الدّاعون الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال، وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل وعدو لكل مخالف للرسل، فهم فى شأن، وغيرهم من أصحاب الأقلام فى شأن.

فهذه الأقلام الّتى فيها انتظام مصالح العالم، ويكفى فى جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلّا به، وأنّ الله سبحانه أقسم به فى كتابه، وتعرّف إلى غيره بأن علّم بالقلم، وانما وصل الينا ما بعث به نبيّنا صلى الله عليه وسلّم بواسطة القلم.

(ألتبيان فى أقسام القرآن / ٢٥٧ — ٢٦١)

٢ ما انت بنعمة ربك بمجنون: قد اختلف فى تقدير الآية فقالت فرقة: الباء فى (بنعمة ربك) باء القسم، فهو قسم الآخر، اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه، كما تقول: ما أنت بالله بكاذب، وهذا التقدير ضعيف جدًّا، لأنه

قد تقدّم القسم الأول، فكيف يقع القسم الثانى فى جوابه ؟ ولا يحسن أن تقول: والله ما أنت بالله بقائم ، فليس هذا من فصيح الكلام ولا عهد فى كلامهم.
وقالت فرقة : العامل فى (بنعمة ربك) أداة معنى النفى ، والمعنى : أنفى عنك الجنون بنعمة ربك . ورد ابو عمرو بن الحاجب وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها ، وانما تعمل ألفاظها .
وقال الزمخشرى (٤-٥٨٤) يتعلق (بنعمة ربك بمجنون) منفياً ، كما يتعلق بعاقل مثبتًا فى قولك : أنت بنعمة الله عاقل ، يستويان فى ذلك الاثبات والنفى استواءهما فى قولك : ضرب زيد عمرًا ، وما ضرب زيد عمرًا ، يعمل الفعل مثبتًا ومنفيًا إعمالاً واحدًا ، ومحله النصب على الحال أى : ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك ، ولم تمنع الباء أن يعمل بجنون فيما قبله ، لانها زائدة لتأكيد النفى.
واعترض عليه بأن العامل إذا تسقط على محكوم به وله معمول فانه يجوز فيه وجهان : (١) نفى ذالك المعمول فقط نحو قولك : ما زيد يذاهب مسرعًا ، فانه ينتفى الإسراع دون القيام ، ولا يمنع أن يثبت لهُ ذهاب فى غير اسراع .
(٢) ينفى المحكوم به ، فينتفى معموله بانتفائه ، فينتفى الذهاب فى هذه الحال ، فينتفى الإسراع بانتفائه ، فاذًا جعل (بنعمة ربك) معمولاً بمجنون لزم أحد الامرين ، وكلاهما منتف جزمًا .
وهذا الاعتراض هنا فاسد ، لأن المعنى اذا حصل ما أنت بمجنون منعمًا عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعاً ، ولا يصح نفى لمعمول وثبوت العامل فى هذا الكلام ، ولا يفهم منه من له آلة الفهم ، وانما يفهم الآدمى من هذا الكلام أن الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك ، وانتفى عنا ما فهمهُ هذا المعترض بنعمة الله علينا .

(التبيان فى أقسام القرآن / ٢٧٣ - ٢٧٥)

٣ وانّ لك لأجرًا غير ممنون : أخبر سبحانه عن كمال حالتى نبيه صلى الله عليه وسلّم فى دنياه وأخراه فقال : وإنّ لك لأجرًا غير ممنون

أى : غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر ، ونكّر الأجر تنكير تعظيم ، كما قال: إن فى ذالك لآية (الشعراء ٢٦/٨) ، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب (ص ٢٨/٤٠) ؛ إن فى ذالك لذكرى (الزمر ٣٩/٢١) ؛ انّ للمتّقين مفازاً (النبأ ٧٨/٣١) ؛ ان فى ذالك لعبرة (النازعات ٧٩/٢٦) وإنّما كان التنكير للتعظيم ، لانّه صوّر للسّامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ولا ينال له التعبير (التبيان /٢٧٥)

٤ **وانك لعلى خلق عظيم** : هذه من أعظم آيات نبوته ورسالته لمن منحه الله فهمًا ، ولقد سئلت أم المؤمنين عن خُلقه صلى الله عليه وسلّم فأجابت بما شفى وكفى ، فقالت : كانت خُلقه القرآن ، فهمّ سائلها أن يقوم لا يسألها شيئًا بعد ذالك ، ومن هذا قال ابن عباس وغيره : أى : على دين عظيم ، وسمىّ الدّين خلقًا ، لأنّ الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زاكية وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة والمصلحة ، وأقوال مطابقة للحق ، تصدر تلك الاقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات ، فتكتسب النفس بها أخلاقًا ، هى أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها ، فهذه كانت اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم المقتبسة من مشكاة القرآن ، فكان كلامه مطابقًا للقرآن تفصيلًا له وتبيينًا ، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب اليه القرآن ، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن ورغبته فيما رغب فيه ، وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبته لما أحبه ، وسعيه فى تنفيذ أوامره وتبليغه والجهاد فى إقامته ، فترجمت أمّ المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرّسول صلى الله عليه وسلّم ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : كان خلقه القرآن ، وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى ، فاكتفى به واشتفى (التبيان فى أقسام القرآن /٣٢٩)

٦ **بأيكم المفتون** : قد اختلف فى تقديره فقال ابو عثمان المازنى : هو كلام مستأنف ، والمفتون عنده مصدر ، أى : بأيكم الفتنة ، والاستفهام عن

أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعًا فـعيّن حصوله للآخر، والجمهور على خلاف هذا التقدير، وهو عندهم متصل بما قبله، لهم فيه أربعة أوجه : (١) أن الباء زائدة، والمعنى : أيكم المفتون ؟ أى : الذى فُتِن بالجنون كقوله تعالى : تنبت بالدّهن (المؤمنون ٢٣/٢٠) وقوله : يشرب بها عباد الله . (الانسان ٧٦/٦) وزيدت فى المبتدإ كما زيدت فى قولك : بحسبك أن تفعل، قاله أبو عبيد وقتادة والأخفش . (٢) أن المفتون بمعنى الفتنة، والباء ليست بزائدة أى : ستبصر ويبصرون بأيّكم الفتنة، والباء على هذا ليست بزائدة، قاله الأخفش، فهو مصدر على وزن المفعول ويكون معناه : الفتون، كما قالوا : ما لفلان مجلود ولا معقول أى : عقل ولا جلادة (٣) أن المفتون مفعول على بابه، ولكن هنا مضاف محذوف، تقديره : بأيكم فتون المفتون، وليست الباء زائدة، قاله الأخفش أيضًا . (٤) أن الباء بمعنى فى، والتقدير : فى أى فريق منكم النوع المفتون، والباء على هذا ظرفية، قاله الفراء (القرطبى ١٨/ ٢٢٩، التبيان / ٢٧٧)

٩ **ودّوا لو تدهن فيدهنون** : أى : فهم يدهنون حينئذ، أو فهم الآن يدهنون طمعا فى إدّهانك (روح المعانى ٢٩/٣٠) قال أهل اللغة : الإدّهان هو التلبيس، معناه : ودّوا لو تلبس اليهم فى عملهم وعقدهم فيميلون اليك (ابن العربى ٤/١٨٥٥) وحقيقة الإدّهان : إظهار المقاربة مع الاعتقاد للعداوة، فان كانت المقاربة باللين فهى مداهنة، وإن كانت مع سلامة الدّين فهى مُداراة أى : مدافعة (ابن العربى ٤/ ١٨٥٦) وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : مَثَل المداهن فى حدود الله والقائم عليها كمثل قوم استهموا فى سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فأراد الذين فى أسفلها أن يستقوا الماءَ على الذين فى أعلاها فمنعوهم، فأرادوا أن يستقوا الماء فى أسفل السفينة، فان منعوهم نجَوْا، وان تركوهم هلكوا جميعًا (ابن العربى ٤/ ١٨٥٦) وهذه الآية تدل على أن المداهنة فى أمر الدين حرام (المظهرى ١٠/ ٣٤) .

١٨ ولا يستثنون : قال أبو صالح : كانت استثناؤهم قولهم سبحان الله ربنا (القرطبی ١٨/ ٢٤١)

٤٢ يوم يكشف عن ساق : عن أبی سعيد الخدری رضی الله عنه قال : سمعت رسول الله صلی الله عليه وسلم يقول : يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كلّ مؤمن ومؤمنة ، ويبقی من كان يسجد فی الدنيا رياء وسمعته ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طباقاً واحداً (بخاری ٢/ ٧٣١ ، ١١٠٧ ؛ مسلم ١/ ١٠٢ ؛ مسند أحمد ٣/ ١٧ ؛ وكذا فی سنن الدارمی عن ابن عباس ٣/ ٢٣٣)

قال أبو الليث السمرقندی فی تفسيره : حدثنا الخليل بن أحمد ، قال حدثنا ابن منيع ، قال حدثنا هُدْبة ، قال حدثنا حماد بن سلمة عن عدی بن زيد عن عمارة القرشی عن أبی بُردة عن أبی موسی قال : حدثنی أبی قال : سمعت رسول الله صلی الله عليه وسلم يقول : اذا كان يوم القيامة مُثّل لكل قوم ما كانوا يعبدون فی الدنيا فيذهب كلّ قوم إلی ما كانوا يعبدون ويبقی أهل التوحيد فيقال لهم : ما تنتظرون وقد ذهب الناس ؟ فيقولون إنّ لنا ربّاً كنّا نعبده فی الدنيا ولم تروه ، قال : وتعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون : نعم ، فيقال : فكيف تعرفونه ولم تروه ؟ قالوا : انه لا شبيه له ، فيكشف لهم الحجاب فينظرون الی الله تعالی فيخرون له سجّداً ، وتبقی أقوام ظهورهم مثل صَيَاصِي البقر (أی : قرونها) فينظرون الی الله تعالی فيريدون السجود فلا يستطيعون ، فذلك قوله تعالی : يوم يكشف عن ساقٍ ويُدعون الی السجود فلا يستطيعون ، فيقول الله تعالی : عبادی ارفعوا رؤسكم فقد جعلت بدل كلّ رجلٍ منكم رجلاً من اليهود والنصاری فی النّار ، قال أبو بردة : فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال : الله الّذی لا اله الّا هو لقد حدّثك أبوك بهذا الحديث ؟ فحلف له ثلاثة أيمان ، فقال عمر : ما سمعت فی أهل التوحيد حديثاً هو أحبّ إلیّ من هذا . (القرطبی ١٨/ ٢٤٩ ، ٢٥٠)

قال الحكيم الترمذی رادّاً لقول من قال : المراد بالسّاق الشدة يوم القيامة ؛

وفى هذا قوة لأهل التعطيل؛ قال: وما ينكر هذا اللفظ ويفرّ منه إلّا من يفرّ من اليد والقدم والوجه ونحو ذالك، فعطل الصفات (عمدة القارى ١٦/ ١١٤) وحمل الآية على الشدة لايصلح بوجه، فان لغة القوم أن يقال: كشف الشدة عن القدم، لا كشفتُ عنها، كقوله تعالى: فلما كشفنا عنهم العذاب (الزخرف ٤٣/ ٥٠) فالعذاب هو المكشوف، لا المكشوف عنه، وأيضًا فهنالك تحدث شدة لاتزول إلّا بدخول الجنّة، وهنا لايدعون إلى السّجود، وانما يُدعون الى أشد ماكانت الشدة (الصّواعق المرسلة ١/ ٣٤)

٤٨ ولاتكن كصاحب الحوت إذ نادى: قال ابن عباس: نهاه أن يتشبه بصاحب الحوت، حيث لم يصبر صبر أولى العزم، وهاهنا سؤال نافع، وهو أن يقال: العامل فى الظرف وهو قوله (إذ نادى) لايمكن أن يكون المنهى عنه، إذ يصير المعنى: لاتكن مثله فى ندائه، وقد أثنى الله سبحانه عليه فى هذا النداء فأخبر أنه نجاه به فقال: وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذالك ننجى المؤمنين، (الانبياء ٢١/ ٨٧، ٨٨) وفى الترمذى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: دعوة أخى ذى النون إذ دعى بها فى بطن الحوت، مادعى بها مكروب إلّا فرّج الله عنه: لا إله إلّا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين، فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به فى هذه الدّعوة، وهى النداء الذى نادى به ربه، وانما نهى عن التشبه به فى السبب الّذى أفضى به الى هذه المناداة، وهى مغاضبته الّتى أفضت به إلى حبسه فى بطن الحوت، وشدة ذالك عليه حتّى نادى ربه وهو مكظوم، والكظيم والكاظم: الذى قد امتلأ غيظا وغضبا أو همًّا وحزنًا، وكظم عليه فلم يخرجه، فان قيل: وعلى ذالك فما العامل فى الظرف؟ قيل: مافى (صاحب الحوت) من معنى الفعل؛ فان قيل: فالسؤال بعد قائم، فانه

إذا قيد النهى بقيد أو زمن كان داخلاً فى حيز النهى ، فإن كان المعنى : لا تكن مثل صاحب الحوت فى هذه الحال أو هذا الوقت كان نهياً عن تلك الحالة ، قيل : لما كان نداؤه مسبباً عن كونه صاحب الحوت فنهى أن يشبه به فى الحال التى أفضت به إلى صحبته الحوت وألجأته إلى النداء ، وهو ضعف العزيمة وعدم الصبر لحكمه تعالى ، ولم يقل تعالى : ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت فنادى ، بل طوى القصة واختصرها ، وأحال بها على ذكرها فى الموضع الآخر ، واكتفى بغايتها وما انتهت اليه ، فان قيل : فما منعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهى عنه ؟ أى : لا تكن مثله فى ندائه وهو ممتلئ غيظاً وهماً وغماً ، بل يكون نداؤك نداء راضٍ بما قضى ربه عليه ، قد تلقاه بالرضى والتسليم وسعة الصدر ، لا نداء كظيم ، قيل : هذا المعنى وإن كان صحيحاً فلم يقع النهى عن التشبيه به فى مجرده ، وإنما نهى عن التشبيه به فى الحال التى حملته على ذهابه مغاضباً حتى سجن فى بطن الحوت ، ويدل عليه قوله تعالى : فاصبر لحكم ربك ، ثم قال : ولا تكن كصاحب الحوت أى : فى ضعف صبره لحكم ربه ، فان الحالة التى نهى عنها هى ضد الحالة التى أمر بها .

فان قيل : ما منعك أن تصير إلى أنه أمر بالصبر لحكمه الكونى القدرى الذى قدره عليه ، ولا تكن كصاحب الحوت ، حيث لم يصبر عليه ، بل نادى وهو كظيم لكشفه ، فلم يصبر على احتماله والسكون تحته ؟ قيل : منع من ذلك أن الله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من ضر ، وقد أثنى عليه سبحانه بذلك فى قوله : وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين (الانبياء ٢١/ ٨٧ ، ٨٨) فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثنى به عليه ويمدحه به ؟ وكذلك

أثنى على يعقوب بقوله : انما أشكو بثّي وحزني الى الله (يوسف ١٢/٨٦).
وعلى ايوب بقوله : انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين (الانبياء ٢١/٨٣)
وعلى موسى بقوله : رب انى لما أنزلت إلىّ من خير فقير (القصص ٢٨/٢٤)
وقد شكى اليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله : اللهم أشكو اليك ضعف قوتى وقلة حيلتى – الحديث ، فالشكوى اليه سبحانه لاتنافى الصبر الجميل ، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة ، وجعل الشكوى اليه وحده هو الصبر ، والله تعالى يبتلى عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاؤه ، وقد ذمّ الله سبحانه من لم يتضرع اليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال : ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون (المؤمنون ٢٣ / ٧٦) والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه ، والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه ، بل أراد منه أن يستكين له و يتضرع اليه ، وهو تعالى يمقت من يشكوه الى خلقه ، و يحب من يشكو ما به اليه ، وقيل لبعضهم : كيف تشتكى اليه ما ليس يخفى عليه ؟ فقال ربى يرضى ذل العبد إليه ، والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولى العزم الذين صبروا لحكمه إختياراً ، وهذا أكمل الصبر ، و لهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء ، حتى ردّوها إلى أفضلهم وخيرهم و أصبرهم لحكم الله صلوات الله و سلامه عليهم اجمعين . (عدة الصابرين و ذخيرة الشاكرين / ٣٢ - ٣٤) .

الحَاقَّة

١٢ وتعيها أذن واعية : فى تفسير الثعلبى عن ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : سألت الله ان يجعلها أذنك يا على، وذكر نحوه من طريق أبى نُعيم ، وهذه فضيلة لم تحصل لأحد غيره، فيكون هو المقدّم. والجواب : هذا موضوع ، وقوله تعالى : لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ، خطاب لبنى آدم ، لم يُرد واحداً من الناس ، فإن حمل نوح وقومه فى السّفينة من أعظم الآيات ، نعم أذن على واعية كآذان أبى بكر وعمر وعثمان وخلق من الأمّة بلاريب، أترى أذن نبيّنا صلى الله عليه وسلم ليست واعية ؟ ولا أذن الحسن والحسين وعمار وأبى ذر؟ فانتفى التفرد والأفضلية ، فكم تبنى أمرك على مقدماتٍ واهية : متلاشية كدأب أئمتك ، فما برحتم كذالك ، فما تنفق حججكم الآ على تلميذ أو صاحب هوى وعصبية ، ولهذا يقال : ليس للرافضة عقل ولانقل ولادين صحيح ولادولة منصورة (المنتقى / ٤٦٧)

٣٨ فلا أقسم بما تبصرون : قال مقاتل : بما تبصرون من الخلق ومالا تبصرون منه ، وقال قتادة : أقسم بالأشياء كلّها بما يبصر وما لا يبصر ، وقال الكلبى : تبصرون من شيئ ، ومالا تبصرون من شيئ . وهذا أعم قسم وقع فى القرآن ، فانه يعلم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة ، ومايرى ومالايرى، ويدخل فى ذالك الملائكة كلّهم والجن والإنس ، والعرش والكرسى وكل مخلوق ، وكل ذالك من آيات قدرته وربوبيته ، وهو سبحانه يصرف الأقسام كما يصرف الآيات، نفى ضمن هذا القسم أن كل مايرى ومالايرى آية ، ودليل على صدق رسوله ، وأن ماجاء به هو من عند الله وهو كلامه ، لا كلام شاعر، ولا مجنون ولا كاهن. (التبيان فى أقسام القرآن / ٢٢١).

٤٠ **انه لقول رسول كريم** : وهذا رسوله البشري محمد صلى الله عليه وسلم، وفي إضافته اليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل، فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت اضافته اليه اضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولا، ولناقض ذالك إضافته الى رسوله الملكي في سورة التكوير، وأخبر سبحانه أنه تنزيل من رب العلمين (التبيان / ٢٢٢).

٤٥ **لاخذنا منه باليمين** : قال ابن قتيبة في هذا قولان: (١) أن اليمين: القوة والقدرة، وأقام اليمين مقام القوّة، لأن قوّة كل شيء في ميامنه، قلت: وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ، وهذا قول ابن عباس في اليمين. (٢) قال: ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهو أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل: خذ بيده، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خذ بيده، واسفع بيده، فكأنه قال: لو كذب علينا في شيء مما بلغ اليكم عنا لأخذنا بيمينه، ثم عاقبناه بقطع الوتين، والى هذا المعنى ذهب الحسن. فقد أخبر سبحانه انه لو تقوّل عليه شيئاً من الأقاويل لما أمره، ولعاجله بالعقوبة، فإنّ كذباً على الله ليس ككذب على غيره، ولا يليق به أن يقرّ الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه. (التبيان في أقسام القرآن / ٢٣٠، ٢٣١)

٤٦ **ثم لقطعنا منه الوتين** : الوتين: نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، اذا انقطع بطلت القُوَى ومات صاحبه، هذا قول جميع أهل اللغة، قال ابن قتيبة: ولم يرد أنّا نقطع ذالك العرق بعينه، ولكنه أراد: لو كذب علينا لأمتناه أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه، قال: ومثله قوله صلى الله عليه وسلم: مازالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان قطعت أبهري، والأبهر: عرق يتصل بالقلب، فاذا انقطع مات صاحبه، فكأنه قال: فهذا أوان قتلني السّمّ، فكنت كمن انقطع أبهره. (التبيان / ٢٣١) ۞

المعارج

١٧ **تدعو من أدبر وتولّى** : أى: تدعو لظى من أدبر فى الدنيا عن طاعة الله وتولّى عن الايمان، ودعاؤها أن تقول: إلىّ يا مشرك، إلىّ يا منافق. وقال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب (القرطبى ١٨/ ٢٨٩)

وهذه استعارة، والمراد بدعائها من أدبر وتولى والله أعلم: انه لما استحقها بإدباره عن الحق صارت كأنها تدعوه اليها وتسوقه نحوها، وعلى ذلك قول ذى الرمة فى صفة الثور:

أمسى بوهبين مجتازاً لمرتعه
بذى الفوارس تدعو أنفه الريب

والريب: جمع ربة، وهى نبت من نبات الصّيف، يقول: لما وجد ريح الرّبب مضى نحوها فكأنها دعته إلى أكلها (تلخيص البيان / ٢٥٠)

وقد يجوز أيضًا أن يكون المراد بذلك: أنّها لا يفوتها ذاهب، ولا يعجزها هارب، فكأنها تدعو الهارب منها فيجيبها، مدًّا له بأسبابها، وردًّا له الى عذابها (تلخيص البيان / ٢٥٠)

وقال ثعلب: تدعو أى: تهلك، تقول العرب: دعاك الله أى: أهلكك الله (القرطبى ١٨/ ٢٨٩)

٤٢ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا** : لما أقام عليهم الحجة وقطع المعذرة فقال: فذرهم يخوضوا ويلعبوا، الآية، وهذا تهديد شديد يتضمن تركه هؤلاء الذين قامت عليهم حجته فلم يقبلوها، ولم

يخافوا بأسى ، ولا صدقوا رسالاتى فى خوضهم بالباطل ولعبهم ، فالخوض فى الباطل ضد التكلم بالحق ، واللّعب ضدّ السّعى الذى يعود نفعه على ساعيه ، فالأول ضد العلم النافع ، والثانى ضد العمل الصّالح ، فلا تكلّم بالحق ولا عمل بالصواب ، وهذا شأن كل مَن أُعرِضَ عما جاء به الرسول ، لابدّ له من هذين الأمرين (التّبيان / ٢٤٩)

٤٣ كأنّهم الى نصب يوفضون : أى : يسرعون ، والنصبُ العَلَم والغاية التى تُنصب فيؤُمونها ، وهذا من أُلطف التّشبيه و أبينه وأحسنه ، فان الناس يقومون من قبورهم مهطعين الى الدّاعى يؤُمون الصوت ، لايعوجون عنه يُمنةً ولا يُسرةً ، كما قال : يومئذ يتبعون الدّاعى لاعوج له (طه ٢٠ / ١٠٨) أى : يقبلون من كل أوبٍ الى صوته وناحيته لا يعوجون عنه (التبيان ٢٤٩ ، ٢٥٠)

شبه إسراعهم الى الدّاعى مستبقين بإسراعهم إلى النصابهم ، وهى كل ما ينصب فيعبد من دون الله (البيشاپورى ٢٩ / ٤٧) النصب : جمع نصاب ، و هو حجر او صنم يذبح عليه ومنه قوله تعالى : وماذبح على النصب ؛ و قال الحسن : كانوا يبتدرون اذا طلعت الشمس الى نصبهم التى كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوى اولهم على آخرهم (القرطبى ١٨ / ٢٩٧) ؛

نوح

١٣ ما لكم لا ترجون لله وقارًا : (١) الرجاء هنا بمعنى الخوف ، أى : ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أحدكم بالعقوبة ، أى : أى عذر لكم فى ترك الخوف من الله ؟ (٢) قال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبى رباح : ما لكم لا ترجون لله ثوابًا ولا تخافون له عقابا.(٣) وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : ما لكم لا تخشون الله عقابا وترجون منه ثوابا (٤) وقال الوالبى والعوفى عنه : ما لكم لا تعلمون لله عظمة. (القرطبى ١٨/ ٣٠٣)

١٤ وقد خلقكم أطوارًا : أى جعل لكم فى أنفسكم آية تدل على توحيده ، قال ابن عباس : أطوارًا يعنى : نطفة ثم علقة ثم مضغة ، أى : طورًا بعد طورٍ الى تمام الخلق ، كما ذكر فى سورة المؤمنون ٢٣/١٢-١٤ والطَّور فى اللغة : المرّة ، أى : مَن فعل هذا وقدَّر عليه فهو أحق أن تعظّموه .وقيل : أطوارًا : صِبيانًا ، ثم شبابًا ، ثم شيوخًا وضعفاء ، وقيل : أطوارًا أى : أنواعًا : صحيحًا وسقيمًا ، وبصيرًا وضريرًا ، وغنياً وفقيراً ، وقيل : إن أطوارًا اختلافهم فى الأخلاق والأفعال (القرطبى ١٨/ ٣٠٣، ٣٠٤)

١٧ والله أنبتكم من الأرض نباتا : هذه استعارة ، لأن حقيقة الإنبات انما تجرى على ما تطلعه الأرض من نباتها ، وتخرجه عند ازدراعها ولما كان تعالى يخرج البرية من مضايق الأحشاء إلى مفاسح الهواء ، ويدرجهم من الصغر الى الكبر ، وينقلهم من الهيئات والصور ، وكل ذالك على وجه الارض جاز أن يقول تعالى : والله أنبتكم من الأرض نباتا ، وقال بعضهم : قد يجوز أن يكون المراد بذالك خلق آدم عليه السلام من الطين ، وهو اصل الخليقة ،

فإذا خلقه تعالى من طين الأرض، كان نسله مخلوقين منها، لرجوعهم الى الأصل المخلوق من طينها، فحسن أن يقول تعالى: والله أنبتكم من الأرض نباتا أى: إستخرجكم من طين الأرض، ونباتًا هاهنا مصدر، وقع مخالفًا لما يوجبه بناء فعله، وكان الوجه أن يكون: إنباتا، لأنه فى الظاهر مصدر أنبتكم، وقد قيل: أن هنالك فعلاً محذوفا جرى المصدر عليه، فكأنه تعالى قال: والله أنبتكم من الأرض فنبتم نباتًا، لأنّ أنبت يدلّ على نبت من جهة أنه مضمر به (تلخيص البيان/٢٥٢)

١٩ **والله جعل لكم الأرض بساطًا**: هذه استعارة، والمراد بالبساط هاهنا: المكان الواسع المستوى، شبه بالبساط، وهو النمط الذى يمد على الاستواء فيجلس عليه. (تلخيص البيان/٢٥٢)

٢٣ **وقالوا لاتذرنّ ودًّا**: عن ابن عباس قال: صارت الأوثان اللتى كانت فى قوم نوح عليه السلام فى العرب بعد، أمّا ودّ كانت لكلب بدومة الجندل، وأمّا سواع كانت لهذيل، وأمّا يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبا، وأمّا يعوق فكانت لهمدان، وأمّا نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا اوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم اللتى كانوا يجلسون أنصابًا وسمّوها بأسمائهم، فلم تعبد حتى اذا هلك اولئك وتنسّخ العلم عبدت (بخارى ٧٣٢/٢، تفسير ابن كثير ٣٧٢/٤، البداية ١٠٥/١، ١٠٦؛ ١٩/٢؛ الاتقان ١٨١/٢؛ إغاثة اللهفان ٢٠٦/٢، معجم البلدان ٣٦٨/٥، ٤٣٨)

اغرقوا فأدخلوا نارًا: هى نار البرزخ، والمراد عذاب القبر - (روح المعانى ٩٠/٢٩) فادخلوا نارًا فى عالم البرزخ المسمّى بالقبر، فانه روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفرات النيران، فهذه الآية دليل على اثبات عذاب القبر، لأن الفاء للتعقيب، وصيغة ادخلوا للمضى (المظهرى ٧٧/١٠) ❊

الجنّ

٣ ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا : أى : وأنهم كما نفوا عن انفسهم الإشراك بالله ، نزهوا ربهم عن الزوجة والولد ، لأن الصاحبة تتخذ للحاجة اليها ، ولأنها من جنس الزوج ، كما قال : خلق لكم من أنفسكم ازواجًا لتسكنوا اليها - (الروم ٣٠/٢١) والولد للتكثر والاستئناس به ، والحاجة اليه حين الكِبَر وبقاء الذكر والشهرة ، كما قال :

وكم أب علا بابن ذرا شرف
كما علت برسول الله عدنان

والله سبحانه منزه من ذالك ، تعالى ربنا علوًا كبيرًا ، والخلاصة : علا ملك ربنا وسلطانه أن يكون ضعيفا ، ضعف خلقه الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة أو ملامسة يكون منها الولد (المراغى ٢٩/ ٩٦)

٦ فزادوهم رهقا : قال كردم بن أبى السائب : خرجت مع أبى إلى المدينة أوّل ما ذكر النّبى صلى الله عليه وسلّم ، فآوانا المبيت إلى راعى الغنم ، فلما انتصف اللّيل جاء الذئبُ فحمل حَمَلا من الغنم ، فقال الراعى : يا عامرَ الوادى ، أنا جارك ، فنادى منادٍ : ياسِرحان أرسله ، فأتى الحَمل يشتد - وأنزل الله على رسوله بمكة : وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقًا أى : زاد الجنّ الإنس رهقًا أى : خطيئة وإثما ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، والرّهق : الإثم فى كلام العرب وغشيان المحارم ، ورجل رَهِقٌ إذا كان كذالك ، ومنه قوله تعالى : وترهقهم ذلّة - (يونس ١٠/ ٢٧) وقال الأعشى :

لاشيء ينفعنى من دون رؤيتها ؛ هل يشتفى وامق مالم يصب رهقًا .

يعنى : إثماً ، وأضيفت الزيادة إلى الجنّ إذ كانوا سببًا لها، وقال مجاهد أيضًا : فزادوهم أى : إنّ الإنس زادوا الجنّ طغيانًا بهذا التعوذ ، حتى قالت الجنّ : سُدنا الإنس والجنّ (القرطبى ١٩/١٠ ؛ أسد الغابة ٤/٢٣٤)

أى : فزاد الجن الإنس غيًّا بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم ، والرهق: غشيان شئ ، والمراد ههنا : غشيان المحارم والإثم (المظهرى ١٠/٨٦)

١٨ **فلا تدعوا مع الله أحدًا** : هذا توبيخ للمشركين فى دعائهم مع الله غيره فى المسجد الحرام ، وقال مجاهد : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيّه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدّعوة إذا دخلوا المساجد كلّها ، يقول : فلا تشركوا فيها صنماً وغيره ممّا يعبد ، وقيل : المعنى أفردوا المساجد لذكر الله ولا تتّخذوها هزوًا و مَتجرًا ومجلسًا ولا طرقًا ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبًا (القرطبى ١٩/٢٢)

١٩ **كادوا يكونون عليه لبدًا** : (١) قال الزبير بن العوام : هم الجنّ حين استمعوا القرآن من النبى صلى الله عليه وسلّم أى : كاد يركب بعضهم بعضًا إزدحامًا و يسقطون ، حرصًا على سماع القرآن (القرطبى ١٩/٢٣). (٢) قال الحسن وقتادة وابن زيد يعنى لما قام عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم بالدّعوة تلبّدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه ، وأبى الله إلّا أن ينصره ويتم نوره (القرطبى ١٩ / ٢٣ ؛ المظهرى ١٠/٩٣ ؛ المراغى ٢٩ / ١٠٣)

٢٦ **عالم الغيب فلا يظهر** : قال العلماء : لمّا تمدّح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه ، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل ، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحى إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم ، وليس المنجّم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر فى الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، بل هو كافر بالله ، مفتر عليه

بحدسه و تخمينه وكذبه .... وفيه استحلال دمه على هذا التنجيم (القرطبي ١٩ /٢٨ ، البحر المحيط ٨ / ٣٥٥)

٢٧ إلّا من ارتضى من رسول : (١) الاستثناء متصل أى : إلّا رسولاً ارتضاه على بعض غيوبه المتعلقة برسالته، كما يعرب عنه بيان من ارتضى بالرّسول تعلقا تامًّا ، إمّا لكونه من مبادئ رسالته بأن يكون معجزة دالة على صحتها وإمّا لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية التى أمر بها المكلّفون وكيفيات أعمالهم وأجزيتها المترتبة عليها فى الآخرة ، وما تتوقف هى عليه من أحوال الآخرة التى من جملتها قيام السّاعة والبعث وغير ذالك من الأمور الغيبية الّتى بيّنها من وظائف الرسالة ، وأما مالا يتعلق بها على أحد الوجهين من الغيوب الّتى من جملتها وقت قيام السّاعة فلا يظهر عليه أحداً أبداً ، على أن بيان وقته مخل بالحكمة التشريعية التى يدور عليها فلك الرسالة (ابو السعود ٩ /٤٧ ، الفتوحات الالهية ٤ /٤٢٥ ، روح المعانى ٢٩ /١١٠) (٢) وهو من الاستثناء المنقطع أيضاً أى : لكن ، والمعنى : لكن من ارتضاه من الرسل فانه يجعل له ملئكة رصداً . (الفتوحات الإلهيّة ٤ / ٤٢٥) أنه ذكر هذه الآية عقيب قوله : ان أدرى أقريب ماتوعدون الآية أى : لا أدرى وقت وقوع القيامة إذ هى من الغيب الذى لايظهره الله لأحد ، وإلّا من ارتضى استثناء منقطع كأنه قال : فلا يظهر على غيبه المخصوص أحداً إلّا من ارتضى من رسول فله حفظة يحفظونه من شرّ مردة الإنس والجن (البحر المحيط ٨/ ٣٥٦) ❊

المُزّمِّل

١ **يا أيها المزّمّل** : هو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلّم ، وليس المزّمّل باسم من أسمائه يعرف به كما ذهب اليه بعض الناس وعدّده فى أسمائه ، وانّما المزّمل اسم مشتق من حالته الّتى كان عليها حين الخطاب وكذالك المدثر ، فى خطابه بهذا الاسم فائدتان : (١) الملاطفة ، فان العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سمّوه باسم مشتق من حالته التى هو عليها كقول النبى صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه حين غاضب فاطمة رضى الله عنها فأتاه وهو قائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له : قم يا أبا تراب ، إشعاراً أنه غير عاتب عليه وملاطفة له ، وكذالك قول النبى صلى الله عليه وسلم لحذيفة رضى الله عنه : قُمْ يا نومان ، وكان نائماً ملاطفة له وإشعاراً لترك العتب والتأنيب ، فقول الله لمحمد صلى الله عليه وسلم : يا أيها المزمل قم الليل ، فيه تأنيس و ملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه . (٢) التنبيه لكل متزمّل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الّيل وذكر الله تعالى فيه . لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل بذالك العمل واتصف بتلك الصفة ، فهاتان فائدتان (التعريف والإعلام / ١٧٧ ، ١٧٨)

٢ **قم الّيل إلّا قليلاً نصفه** : (١) قال الزجاج : (نصفه) بدل من الّيل و (إلّا قليلا) استثناء من النّصف ، والضمير فى (منه) و (عليه) للنصف ، والمعنى : قم نصف الّيل أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث أو زد عليه قليلا إلى الثلثين ، فكأنه قال : قم ثلثى الّيل أو نصفه أو ثلثه (٢) إنّ (نصفه) بدل من قوله (قليلاً) وكان مخيّراً بين ثلاث : بين

قيام النصف بتمامه ، وبين الناقص منه ، وبين قيام الزائد عليه ، كأن تقدير الكلام : قم الليل إلا نصفه ، أو أقل من نصفه ، أو اكثر من نصفه (القرطبي ١٩/ ٣٥ ، المراكي ٥/ ٢٧٨)

٤ **ورتل القرآن ترتيلا** : قال في فتح البيان : والمقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب عند القراءة ، لا مجرد اخراج الحروف من الحلقوم بتعويج الوجه والفم وألحان الغناء كما يعتاده قرّاء هذا الزمان من أهل مصر وغيرها في مكة المكرّمة وغيرها ، بل هو بدعة أحدثها البطالون الأكالون والحمقى ، الجاهلون بالشرائع وأدلتها الصادقة ، وليس هذا بأول قادورة كسرت في الاسلام (المراغي ٢٩/ ١١٢)

٥ **انّا سنلقى عليك قولًا ثقيلا** : (١) أراد ثقله على النبي صلى الله عليه وسلم حين كان يُلقيه الملك اليه ، وقد سئل كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحيانًا يأتيني الملك مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ ، فيُفْصِم عنّي وقد وعيتُ ما قالَ (٢) ثقل العمل به ، قاله الحسن وقتادة (٣) وقد قيل : أراد ثقله في الميزان (ابن العربي ٤/ ١٨٧٦) (٤) وقيل : ثقيلاً أي : ثابتاً كثبوت الثقيل في محله ، ويكون معناه : أنه ثابت الإعجاز ، لا يزول إعجازه أبدًا (القرطبي ١٩/ ٣٨)

٦ **انّ ناشئة الليل** : (١) قال العلماء : ناشئة الليل أي : أوقاته وساعاته ، لأن أوقاته تنشأ أوّلًا فأوّلًا ، يقال : نشأ الشيء ينشأ : إذا ابتدأ وأقبل شيأً بعد شيء ، فهو ناشئ ، وأنشاه الله فنشأ ، ومنه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها الله ، فناشئة فاعلة من نشأت تنشأ فهي ناشئة ، ومنه قوله تعالى : أَوَ مَن يُنَشَّأُ في الحلية وهو في الخصام غير مبين (الزخرف ٤٣/ ١٨) والمراد : إن ساعات الليل الناشئة ، فاكتفى بالوصف عن الإسم ، فالتأنيث للفظ ساعة ، لأن كل ساعة تحدث (٢) وقيل : الناشئة

مصدر بمعنى قيام الليل كالخاطئة والكاذبة أى : ان نشأة الليل هى أشد وطأً . (٣) وقيل : إنّ ناشئة الليل : قيام الليل ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : الحَبَشَة يقولون : نشأ أى : قام ، فلعله أرادَ أن الكلمة عربية ، ولكنها شائعة فى كلام الحبشة (القرطبى ١٩/ ٣٩)

٧ ان لك فى النهار سبحًا طويلًا : أى : تصرفا فى حوائجك ، وإقبالًا وإدبارًا وذهابًا ومجيئًا ، وقيل : السبح : الفراغ ، أى : ان لك فراغًا للحاجات بالنهار ، والسّبح : التعدد ذكره الخليل ، وعن ابن عباس وعطاء : سبحًا طويلًا يعنى : فراغًا طويلًا لنومك وراحتك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك ، وقال الزجاج : ان فاتك فى الليل شئ فلك فى النهار فراغ الاستدراك (ابن العربى ٤/ ١٨٧٧ ، القرطبى ١٩/ ٤٢)

٨ وتبتّل اليه تبتيلًا : ومعنى الآية : انقطع عن الأوثان والأصنام ، وعن عبادة غير الله وقال مجاهد : أخلص له العبادة (ابن العربى ٤/ ١٨٧٩) التبتل : الإنقطاع إلى عبادة الله عزوجل أى : انقطع بعبادتك اليه ، ولا تشرك به غيره ، يقال : بتلت الشئ أى : قطعته ، ومنه قولهم : طلقها بتّة بتلّة ، وهذه صدقة بتّة بتلّة أى : بائنة منقطعة عن صاحبها أى : قُطِع ملكه عنها بالكلية ، ومنه : مريم البتول لإنقطاعها إلى الله تعالى . (القرطبى ١٩/ ٤٤)

٢٠ فاقرءوا ما تيسر من القرآن : فيه قولان : (١) أنّ المراد به نفس القراءة (٢) أن المراد به الصلوٰة ، عُبّر عنها بالقراءة لانها فيها كما قال (الاسراء ١٧/ ٧٨) : وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهودًا ، وهو الاصحّ ، لانّه عن الصلوٰة أخبر ، واليها رجع القول (ابن العربى ٤/ ١٨٨١)

المدّثّر

١ يايها المدثر : المدثر اصله : المتدثر، وهو الذى يتدثر بثيابه لينام او ليستدفئ، يقال : تندثر بثوبه، والدثار اسم لما يتدثر به، ثم ادغمت التاء فى الدال لتقارب مخرجهما، أجمعوا على ان المدثر هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختلفوا فى أنه لم سمّى مدثّرا ؟ (١) فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدّث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدّث عن فترة الوحى، قال فى حديثه : فبينما أنا أمشى سمعت صوتًا من السّماء فرفعت رأسى فاذا المَلَكُ الذى جاء فى بحراء جالسًا على كرسى بين السّماء والأرض قال : فجُئثت (أى : ذعرت وخِفت) منه فَرَقًا، فرجعت فقلت : زملونى، زملونى، فَدثّرونى، فأنزل الله تعالى : يا يها المدثر قم فأنذر (٢) ان المتدثر بالثوب يكون كالمختفى فيه، وأنه فى غار حراء كان المختفى من الناس، فكأنه قيل : يا ايها المتدثر بدثار الخمول والإختفاء، قم بهذا الأمر واخرج عن زاوية الخمول واشتغل بإنذار الخلق، والدعوة الى معرفة الحق. (٣) انه تعالى جعله رحمة للعلمين، فكأنه قيل له : يا ايها المتدثر بأثواب العلم العظيم والخلق الكريم والرحمة الكاملة قم فانذر عذاب ربك (القرطبى ١٩/٥٩، التفسير الكبير ٣٠ / ١٨٩، ١٩٠)

٣ وربك فكبّر : أى : سيدك ومالكك ومصلح أمرك فعظِّمه، وصِفْه بأنه اكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد، وفى حديث أنهم قالوا : بم تُفتح الصّلاة ؟ فنزلت : وربك فكبّر أى : صِفْه بأنه أكبر، وهذا القول وإن كان يقتضى بعمومه تكبير الصّلاة، فانه مراد به : التكبير والتقديس والتنزيه

بِخَلع الأنداد والأصنام دونه، ولا تتّخذ وليًّا غيره، ولا تعبد سواه، ولا ترى لغيره فعلًا إلّا له ولا نعمة إلّا منه (ابن العربي ٤/١٨٨٦، القرطبي ٦٢/١٩)

٤ وثيابك فطهّر: قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهّر من الذنب، فكنى عن النفس بالثوب، وهذا قول ابراهيم النخعي والضحاك والشعبي والزهري والمحققين من أهل التفسير، قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر، ثم قال: أما سمعتَ قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإنّي — بحمد الله — لا ثوبَ غادرٍ
لبستُ، ولا من غَدْرَةٍ أتقَنَّعُ؟

والعرب تقول في وصف الرجل بالصّدق والوفاء: طاهر الثياب، وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب. وقال أُبيّ بن كعب: لا تلبسها على الغدر والظلم والإثم ولكن ألبسها وأنت برّ طاهر، وقال الضحاك: عملك فأصلح، قال السدي: يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب. وقال سعيد بن جبير: وقلبك وبيتك فطهّر، وقال الحسن والقرظي: وخُلقك فحسّن وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها، لأن المشركين كانوا لا يتطهرون ولا يطهرون ثيابهم، وقال طاؤوس: وثيابك فقصّر، لأنّ تقصير الثياب طهرة لها، والقول الأول أصحّ الأقوال، ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق، لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن، ولذلك أمر القائم بين يدي الله عز وجل بإزالتها والبُعد عنها (مدارج السالكين ٢/ ٢٠، ٢١)

٥ والرجز فاهجر: (١) قال مجاهد وعكرمة: يعني الأوثان، دليله قوله تعالى: فاجتنبوا الرّجس من الأوثان (الحج ٣٠/٢٢) قاله ابن عباس وابن زيد (٢) وقيل: الرِّجز: العذاب، والمعنى: وعمَل الرّجز فاهجر، أو العمل المؤدّي الى العذاب، وأصل الرجز العذاب، قال الله تعالى: الأعراف ٧/ ١٣٤: لئن كشفت

عنا الرجز لنؤ منن بك (القرطبى ١٩/ ٩٦، ٩٧)

٦ ولا تمنن تستكثر : أى : ولا تمنن على أصحابك بما علّمتهم وبلّغتهم من الوحى مستكثراً ذالك عليهم، وقد يكون المعنى : لا تضعف من قولهم: حبل منين أى: ضعيف، و: منّهُ السّيرُ أى : أضعفه، فالمراد لا تضعف أن تستكثر من الطّاعات التى أمرت بها قبل هذه الآية (المراغى ٢٩ / ١٢٧)

١١ ذرنى ومن خلقتُ وحيداً : (١) ذرنى أى: دعنى، وهى كلمة وعيد وتهديد، ومن خلقتُ أى : دعنى والذى خلقته وحيداً، فوحيداً على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف أى : خلقته وحده، لا مال له ولا ولدٌ ثم أعطيته بعد ذالك ما أعطيته (٢) وقال قوم : إنّ قوله تعالى : وحيداً يرجع الى الرّب تعالى على معنيين : (١) ذرنى وحدى معه فأنا أجزيك فى الإنتقام منه عن كل منتقم - (٢) أنى انفردتُ بخلقه ولم يشركنى فيه أحدٌ فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر فى إهلاكه، فوحيداً على هذا حال من ضمير الفاعل وهو التاء فى خلقتُ (القرطبى ١٩/ ٧٠، ٧١)

٣٠ عليها تسعة عشر : والصّحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عشر، هم الرؤساء والنقباء، وأمّا جملتهم فالعبارة تعجز عنها، كما قال تعالى: وما يعلم جنودَ ربك إلّا هو (المدثر ٧٤ / ٣١) وقد ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بجهنّم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كلّ زمام سبعون ألف ملَك يجرّونها (القرطبى ١٩/ ٨٠)

٣٣ واللّيل إذا أدبر : أمّا إقسامه : واللّيل إذا أدبر فلِما فى أدباره وإقبال النهار من أبين الدّلالات الظاهرة على المبدإ والمعاد، فانه مبدأ ومعاد يوم مشهود بالعيان، بينما الحيوان فى سكون اللّيل قد هدأت حركاتهم وسكنت أصواتهم ونامت عيونهم وصاروا إخوان الأموات، إذ أقبل من النهار داعية، وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات وارتفعت منهم الأصوات،

حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور يقول قائلهم: الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذى يبدئ ويعيد، فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار؟

ومن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأدبر فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفلّ (أى: هزم) كتائب الكواكب (أى: جماعة الكواكب) بعساكره وأضحك نواحى الأرض بتباشيره وبشائره، فيا لهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما، وكمال ربوبيته وعظم قدرته وحكمته، فتبارك الذى جعل طلوع الشمس وغروبها مقيما لسلطان الليل والنهار.

فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فكيف كان الناس يسعون فى معاشهم ويتصرفون فى أمورهم والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه، وأى ثمار ونبات وحيوان كان يوجد؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات؟ ولولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا إقرار مع علم حاجتهم إلى الهدو لراحة أبدانهم وجمود حواسهم، فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ما هدأوا ولا قروا ولا سكنوا، بل جعله أحكم الحاكمين سكنا ولباسا، كما جعل النهار ضياء ومعاشا. ولولا الليل وبرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها، وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجا يطلع على العالم فى وقت حاجتهم إليه، ويغيب فى وقت استغنائهم عنه، فطلوعه لمصلحتهم وغيبته لمصلحتهم، وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه، فلو جعل الله سبحانه النهار سرمدا إلى يوم القيامة، والليل سرمدا إلى يوم القيامة لفاتت مصالح العالم، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده (التبيان فى أقسام القرآن ٢١٣/٢١٥)

٤٣ **لم نك من المصلّين** : فى هذه الآيات من صفات غير المفلحين الهالكين : (١) ترك الصلاة ، وهى عمود الاخلاص للمعبود (٢) ترك إطعام المسكين ، الذى هو من مراتب الاحسان للعبيد ، فلا إخلاص للخالق ولا إحسان للمخلوق ، كما قال تعالى : ولا يأتون الصلوة الّا وهم كسالى ولا ينفقون الّا وهم كارهون (التوبة ٩/٥٤) وقال : الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون (الماعون ٦، ٨) وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله : الذين يقيمون الصلوٰة ومما رزقناهم ينفقون (الأنفال ٨/ ٣) وقرن سبحانه بين هذين الأصلين فى غير موضع فى كتابه ، فأمر بهما تارة ، وأثنى على فاعلهما تارة ، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة ، فانّ مدار النجاة عليهما ، ولا فلاح لمن أخلّ بهما . (٣) الخوض بالباطل (٤) والتكذيب بالحق ، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان ، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق ، واجتمع لأصحاب اليمين : الإخلاص والإحسان والتصديق بالحق والتكلم به ، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ويقينهم وكلامهم . (التبيان فى أقسام القرآن /٢١٩ ، ٢٢٠)

٤٥ **وكنّا نخوض مع الخائضين** : أى : وكنّا لانبالى بالخوض فى الباطل مع من يخوض فيه ، قال ابن زيد : نخوض مع الخائضين فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم فنقول : انه كاذب ، ساحر ، مجنون ، وفى أمر القرآن فنقول انه سحر وشعر وكهانة الى نحو اولئك من الأباطيل (المراغى ٢٩/ ١٤٠)

وعُدَّ من ذالك حكاية ما يجرى بين الزوجين فى الخلوة مثلاً ، وحكاية أحوال الفسقة بأفسا قهم على وجه الالتذاذ والاستئناس بها ، ونقل الحروب التى بين الصحابة لغير غرض شرعىّ ، بل لمجرّد أن يتوصل به إلى طعنٍ وتنقيص ، والتكلم بكلمة يضحك بها الرجل جلسائه ، سواءً كانت مباحًا فى نفسها أم لا (روح المعانى/ ٢٩/ ١٥٢)

كأنهم حمر مستنفرة : شبههم فى إعراضهم ونفورهم

عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرّماة فنفرت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فان القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر، وهي لا تعقل شيئًا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرّامي نفرت منه أشدّ النفور، وهذا غاية الذّم لهؤلاء، فانّهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عن من يملكها ويعقرها، وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة، فانها لشدّة نفورها قد استنفر بعضها بعضًا وحضه على النفور فان في الاستفعال من الطلب قدرًا زائدًا على الفعل المجرّد، فكأنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه (إعلام الموقعين ١/١٤١)

٥٦ هو أهل التقوى وأهل المغفرة : أخرج أحمد

والترمذي وحسّنه، والحاكم وصححه والنسائي وابن ماجة وخلق آخرون عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال: قد قال ربكم : أنا أهل أن أتّقى فلا يُجعل معي إلهٌ، فمن اتّقاني فلم يجعل معي إلهًا آخر فأنا أهل أن أغفر له (روح المعاني ٢٩/ ١٥٤)

القيامة

٢ ولا أقسم بالنفس اللوامة (١) قال ابن عباس : كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة ، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد احسانا ، ويلوم المسئ نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته ، واختاره الفرّاء ، قال : ليس من نفس برة ولا فاجرة إلّا وهى تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيرًا قالت : هلّا ازددت خيرًا ؟ وإن كانت عملت سوءًا قالت : يا ليتنى لم أفعل . (٢) انها خاصة ، قال الحسن : هى النفس المؤمنة ، وأن المؤمن — والله — لاتراه إلّا يلوم نفسه على كل حالة ، لأنه يستقصرها فى كل ما تفعل ، فيندم ويلوم نفسه ، وأن الفاجر يمضى قدمًا لايعاتب نفسه . (٣) انها النفس الكافرة وحدها ، قاله قتادة ومقاتل : وهى النفس الكافرة تلوم نفسها فى الآخرة على ما فرطت فى أمر الله ، قال شيخنا : والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقًا ، فان نفس كل انسان لوّامة ، كما أقسم بجنس النفس فى قوله : ونفس وما سوّاها فالهمها فجورها وتقواها (الشمس ٩١/ ٧، ٨) فانه لابد لكل انسان أن يلوم نفسه او غيره على أمره (التبيان فى أقسام القرآن / ٣٥ ، ٣٦) .

٢٣ وجوه يومئذ ناظرة الى ربها ناظرة : قال مجاهد : تنتظر الثواب من ربها ، لا يراه من خلقه شئ (ابن جرير ٢٩/ ١٢٠ ، ابن كثير ٤/ ٣٩٣) قال الثعلبى : وقول مجاهد : انها بمعنى تنتظر الثواب من ربها ولا يراه شئ من خلقه ، فتأويل مدخول ، لأن العرب إذا أرادت بها النظر الانتظار قالوا : نظرته ، كما قال تعالى : هل ينظرون إلّا تأويله ؟ (الاعراف ٧/ ٥٣) ، هل ينظرون إلّا الساعة (الزخرف ٤٣/ ٦٦) وإذا أرادت به التفكر والتدبر قالوا : نظرت فيه ،

فأما إذا كان النظر مقرونًا بذكر إلى وذكر الوجه فلا يكون إلّا بمعنى الرؤية والعيان، وقال الأزهري: إنّ قول مجاهد تنتظر ثواب ربها خطأ، لأنه لا يقال: نظر إلى كذا بمعنى الانتظار، وإنّ قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلّا رؤية عين، كذلك تقوله العرب، لأنهم يقولون: نظرت إليه، إذا أرادوا نظر العين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا: نظرته، قال:

فإنكما إنْ تَنظُرانِي ساعةً
مِن الدَّهرِ تَنفَعُني لدى أمِّ جُندُبِ

لما أراد الإنتظار قال: تنظراني ولم يقل: تنظراني إليّ، وإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت اليه، قال:

نظرتُ اليها والنجومُ كأنّها
مصابيحُ رُهبانٍ تُشَبُّ لقُفّالِ

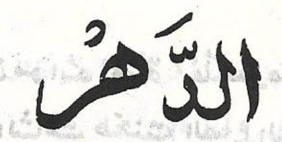
تشب: توقد، والقفال جمع قافل وهو الراجع من السفر (القرطبي ١٩/ ١٠٩)

انّ النظر له عدّة استعمالات بحسب صِلاته وتعديه بنفسه (١) فان عدى بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار: انظرونا نقتبس من نوركم (الحديد ٥٧/ ١٣) (٢) وإن عدى بفي فمعناه: التفكر والاعتبار: أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض (الأعراف ٧/ ١٨٤) (٣) وإن عدى بإلى فمعناه المعاينة بالأبصار: انظروا إلى ثمره إذا أثمر (الأنعام ٦/ ٩٩)

فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟ (شرح العقيدة الطحاوية/٢٥) يستحيل فيها تأويل النظر بانتظار الثواب، فانه أضاف النظر إلى الوجوه بالنضرة التي لا تحصل إلّا مع حضور ما يتنعم به، لا مع التنغيص بانتظاره، ويستحيل مع هذا التركيب تأويل النظر بغير الرؤيا، وان كان النظر بمعنى الانتظار في قوله: انظرونا نقتبس من نوركم وقوله: فناظرة بم يرجع المرسلون (الصواعق المرسلة ١/ ١٧)

٢٧ **وقيل مَن راق ؟** يقول الحاضرون : مَن راقٍ أى : مَن يرقى مِن هذه العلّة التى أعيت على الحاضرين أى : التمسوا له من يرقيه ، والرقية آخر الطب ، وقيل : مَن يرقى بها ويصعد ، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ فعلى الأول تكون من رقَى يرقى كرمَى يرمى ، وعلى الثانى من رقِى يرقَى كشقِى يشقَى ، ومصدره الرقاء ومصدر الأول الرقية ، والقول الأوّل أظهر لوجوه : (١) انه ليس كل ميت يقول حاضروه : من يرقى بروحه ؟ وهذا انما يقوله مَن يؤمن برقى الملئكة بروح الميت ، وانهم ملئكة رحمة وملئكة عذاب ، بخلاف التماس الرقية وهى الدّعاء ، فانّه قلّ ما يخلو منه المحتضر . (٢) ان الروح انما يرقى بها الملك بعد مفارقتها ، وحينئذ يقال : مَن يرقى بها ؟ وأمّا قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها الى الله (٣) أن فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السّامع ، وأمّا الراقى الى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه ، و (مَن) انّما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل الى العلم بتعيينه . (٤) أنّ مثل هذا السؤال انما يراد به تحضيض وإثارة إهتمام الى فعل يقع بعد (مَن) نحو قوله : مَن ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً . (البقرة ٢/٢٤٥) أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها كقوله : مَن ذا الذى يشفع عنده إلّا بإذنه (البقرة ٢/٢٥٥) وفعل الراقى الى الله لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا ، بخلاف فاعل الرقية ، فانه يحسن فيه الأوّل . (التبيان فى أقسام القرآن / ١٩٤، ١٩٥)

٣٦ **أن يترك سدًى** : قال الإمام الشافعى : أى : مهملاً ، لا يؤمر ولا يُنهى ، وقال غيره : لا يثاب ولا يعاقب . والقولان واحد ، لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهى ، فهو سبحانه خلقهم للأمر والنهى فى الدنيا ، والثواب والعقاب فى الآخرة ، فانكر سبحانه على من زعم أنه يترك سدًى إنكار من جعل فى العقل استقباح ذالك واستهجانه ، وأنه لا يليق أن ينسب ذالك الى أحكم الحاكمين . (مفتاح دار السعادة ٢/٣٩٥)



الدَّهرُ

١ هل أتى على الانسان: أى: قد أتى على جنس الانسان قبل زمان قريب طائفة محدودة مقدرة كائنة من الزمان الممتد لم يكن شيئاً غير مذكور بالإنسانية أصلاً أى: غير معروف بها، على أن النفى راجع الى القيد، والمراد: انه معدوم لم يوجد بنفسه، بل كان الموجود أصله ممّا لا يسمّى إنساناً ولا يعرف بعنوان الإنسانية، وهو مادته البعيدة، أعنى: العناصر أو المتوسطة وهى الأغذية، أو القريبة وهى النطفة المتولدة من الأغذية المخلوقة من العناصر، وجملة: لم يكن شيئاً مذكوراً حالاً من الانسان أى: غير مذكور، وجوز أن تكون صفة لحين بحذف العائد عليه أى: لم يكن فيه شيئاً مذكوراً، كما فى قوله تعالى: واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً، واطلاق الانسان على مادته مجاز بجعل ما هو بالقوّة منزلاً منزلة ما هو بالفعل، أو هو من مجاز الأول، وقيل: المراد بالانسان آدم عليه السّلام، وأيد الأول بقوله تعالى: إنّا خلقنا الانسان من نطفة (روح المعانى ٢٩/ ١٧٣).

فان قيل: فى تفسير الثعلبى بطرق قال: مرض الحسن والحسين، فعادهما جدّهما وعامة العرب، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر صوم ثلاثة أيام، وكذالك نذرت أمهما وجاريتهم فضّة، فبرئا، وليس عند آل محمّد قليل ولا كثير، فاستقرض علىّ ثلاثة آصع من شعير فعملت منه فاطمة خمسة أقراص، وصلىّ علىٌّ مع النبى صلى الله عليه وسلم المغرب، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه إذ أتاهم مسكين فوقف وسأل، فأعطوه الطعام و مكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلّا الماء، فلما كان اليوم الثانى قامت فاطمة وخبزت صاعاً وجاء علىٌّ فأتى يتيم من أولاد المهاجرين وقال استشهد والدى يوم

العقبة ، أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة ، فأعطوه الطعام ومكثوا يومين وليلتين ، فلما كان اليوم الثالث طحنت الصاع الثالث وخبزته و أتى على فوضع الطعام إذ أتى أسير فقال: أطعمونى فانى أسير محمد أطعمكم الله على موائد الجنة ، فأمر على بإعطائه ، فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام بلياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء ، فلما كان اليوم الرابع — ونفد ماعندهم — أخذ على الحسن بيده اليمنى والحسين بيده اليسرى وأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرتعشون كالفراخ من الجوع ، فانطلق معهم إلى منزل فاطمة وقد لصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها من الجوع ، فهبط جبريل فقال: يا محمد خذ ما هنّاك الله فى أهل بيتك ، فأقرأه : هل أتى على الانسان شئ من الدهر — الى قوله تعالى — : انما نطعمكم لوجه الله (اسباب النزول للواحدى / ٢٩٦)

قلت : (١) انه موضوع باتفاق أهل النقل ، ومن المعلوم أن علياً إنما تزوج بفاطمة بالمدينة ، وهل أتى على الانسان مكية باتفاق المفسرين فلاح كذب الحديث (المنتقى من منهاج الاعتدال / ٣٦٩) (٢) قال الترمذى الحكيم أبو عبدالله فى نوادر الأصول : فهذا حديث مُزَوَّقٌ مُزَيَّفٌ ، قد تطرّف فيه صاحبه حتى تشبّه على المستمعين ، فالجاهل بهذا الحديث يعض شفتيه تلهفاً ألا يكون بهذه الصفة ، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم وقد قال الله تعالى : ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو (البقره ٢ / ٢١٩) وهو الفضل الذى يفضل عن نفسك وعيالك ، وجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترة بأنّ : خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وابدأ بنفسك ثم بمن تعول . وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت . أفيحسب عاقل أن علياً جهل هذا الأمر حتى أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ست

على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ؟ حتى تضوروا من الجوع ، وغارت العيون منهم لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد، هب أنه آثر على نفسه هذا السائل فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذالك؟ وهب أن أهله سمحت بذالك لعلي فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن؟ ما يروج مثل هذا إلا على حمقى جهال ، أبى الله لقلوب متنبهه أن تظن بعلي مثل هذا (القرطبي ١٩/ ١٣٤) (٣) لم تكن لفاطمة جارية اسمها فضة ، ولا نعرف أنه كان بالمدينة جارية اسمها فضة ، وانما هي بمنزلة ابن عقب أسماء موضوعة لمعدومين ، وقد ثبت في الصحيحين عن علي رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم خادما فعلمها أن تسبح عند المنام وتكبر وتحمد مائة وقال: هذا خير لكم من خادم (٤) وقول اليتيم : أستشهد أبي يوم البيعة ، هذا من الكذب الظاهر المهتوك ، فليلة العقبة كانت مبايعة محضة ليست غزوة ، فقبح الله من وضعه (٥) ثم انه لم يكن في المدينة أسير قط يسأل الناس ، بل كان المسلمون يقومون بالأسير الذى يستأسرونه ، فدعوى المدعي أن أسراهم كانوا محتاجين إلى مسألة الناس كذب عليهم وقدح فيهم (المنتقى من منهاج الاعتدال/ ٣٦٩)

٣ **انا هديناه السبيل**: أي : بيناله وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ببعث الرسل ، فآمن أو كفر، كقوله تعالى : وهديناه النجدين، وقال مجاهد : أي : بينا له السبيل الى الشقاء والسعادة (القرطبي ١٩/ ١٢٢)

٥ **ان الأبرار يشربون**: الأبرار : أهل الصدق ، واحدهم بر، وهو من امتثل أمر الله تعالى ، وقيل : البر : الموحد، والأبرار: جمع بار مثل شاهد وأشهاد وقيل : هو جمع بر مثل نهر وأنهار ، وفي الصحاح : وجمع البر : الأبرار ، وجمع البار: البررة ، وفلان يبر خالقه ويتبرره أي: يطيعه ، والأم برة بولدها ، وروى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: انما سماهم الله تعالى الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء كما أن لوالدك عليك حقا كذالك لولدك عليك حقا (القرطبي ١٩/ ١٢٥) ❊

المُرسَلٰت

والمرسلات عرفًا : فسّرت المرسلات بالملئكة وهو قول أبي هريرة وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة، وفسّرت بالرياح، وهو قول ابن مسعود، وإحدى الروايتين عن ابن عباس وقول قتادة ، وفسّرت بالسّحاب، وهو قول الحسن، ونسّرت بالانبياء، وهو رواية عطاء عن ابن عباس.

قلت : الله سبحانه يرسل الملئكة ويرسل الانبياء ويرسل السحاب فيسوقه حيث يشاء، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، فإرساله واقع على ذالك كلّه، وهو نوعان : ارسال دين يحبه ويرضاه، كإرسال رسله وأنبيائه، وإرسال كون وهو نوعان : نوع يحبه ويرضاه، كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه، ونوع لا يحبه، بل يسخطه ويبغضه كإرسال الشياطين على الكفار.

فالإرسال المقسم به ههنا مقيّد بالعرف، فإمّا أن يكون ضد المنكر، فهو إرسال رسله من الملئكة، ولا يدخل في ذالك إرسال الرياح ولا الصواعق ولا الشياطين.

وأما إرسال الأنبياء، فلو أريد لقال: والمرسلين. وليس بالفصيح تسمية الانبياء مرسلات، وتكلّف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من اللفظ فلم يطلق في القرآن جمع ذالك إلاّ جمع تذكير، لا جمع تأنيث.

وأيضًا فإقتران اللفظة بما بعدها من الأقسام لا يناسب تفسيرها بالانبياء، وأيضًا : فإن الرسل مقسم عليهم في القرآن، لا مقسم بهم، كقوله تعالى: تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك (النحل ١٦/٦٣) وقوله : والقرآن الحكيم انكَ لمن المرسلين. (يس ٣٦/٢-٣)

وإن كان العرف من التابع، كعرف الفرس وعرف الدّيك، وللناس الى فلان عرف واحد أي : سابقون في قصده والتوجه اليه، جاز أن تكون المرسلت : الرياح، و

يؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات.

وجاز أن تكون الملئكة، وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفـًا عليهما، ويؤيده أن الرّياح مؤكل بها ملئكة تسوقها وتصرفها، ويؤيد كونها الرياح عطف العاصفات عليها بفاء التعقيب والتّسبب، فكأنها أرسلت فعصفت، ومن جعل المرسلات الملئكة قال: هى تعصف فى مضيها مسرعة كما تعصف الرّياح، والأكثرون على أنها الرّياح.

وفيها قول ثالث: انها تعصف بروح الكافر، يقال: عصف بالشئ إذا أباده وأهلكه، قال الأعشى: تعصف بالدارع والحاسر

الدارع: لابس الدرع، والحاسر: الكاشف أى: غير المدرّع - قاله أبو اسحاق، وهو قول متكلف، فان المقسم به لابدّ أن يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية، وأما الأمور الغائبة التى يؤمن بها فانما يقسم عليه، وانما يقسم سبحانه بملئكته وكتابه لظهور شأنهما، والقيام الأدلة والأعلام الظاهرة الدالة على ثبوتهما.

(التبيان فى أقسام القرآن / ١٨٣ - ١٨٤)

٣ **والناشرات نشرًا**: هو استئناف قسم آخر، ولهذا أتى به بالواو، وما قبله معطوف على القسم الأوّل بالفاء، قال ابن مسعود والحسن ومجاهد وقتاده: هى الرياح تأتى بالمطر، ويدل على صحة قولهم قوله تعالى: وهو الذى يرسل الرياح بُشرًا بين يدى رحمته (الأعراف ٧/٥٧) يعنى انها تنشر السحاب نشرًا، وهو ضد الطى- وقال مقاتل: هى الملئكة تنشر كتب بنى آدم وصحائف اعمالهم، وقاله مسروق وعطاء عن ابن عباس، وقالت طائفة: هى الملئكة تنشر أجنحتها فى الجوّ عند صعودها ونزولها، وقيل: تنشر أوامر الله فى الأرض والسماء، وقيل: تنشر النفوس فتحييها بالايمان، وقال أبو صالح: هى الأمطار تنشر الأرض أى: تحييها.

قلت: ويجوز أن تكون الناشرات لازمًا لامفعول له، ولايكون المراد انهن نشرن كذا، فانه يقال: نشر الميت: حيى، وأنشره الله: إذا أحياه، فيكون المراد

بها الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به المرسلات، أو الأشباح والأرواح والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات، فإن الرياح سبب نشور الأبدان والنبات، والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها، لكن هنا أمرًا ينبغي التفطن له، وهو أنه سبحانه جعل الإقسام في هذه السورة نوعين، وفصل أحدهما من الآخر، وجعل العاصفات معطوفا على المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد، ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء، فأوهم هذا أن مفارقات الملقيات مرتبط بالناشرات، وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات ، وقد اختلف في الفارقات، والأكثرون على أنها الملئكة، ويدل عليه عطف الملقيات ذكرًا عليها بالفاء، وهي الملئكة بالاتفاق.

وعلى هذا فيكون القسم بالملئكة التي تنشر أجنحتها عند النزول، ففرقت بين الحق والباطل، فألقت الذكر على الرسل إعذارًا وإنذارًا. ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها وقال: هي تفرق السحاب ههنا وههنا، ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها. ومن قال: الفارقات أي: القرآن يفرق بين الحق والباطل فقوله يلتئم مع كون الناشرات الملئكة أكثر من التئامه إذا قيل: إنها الرياح، ومن قال: هي جماعات الرسل، فإن أراد الرسل من الملئكة فظاهر، وإن أراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول.

ويظهر — والله أعلم بما أراد من كلامه — أن القسم في هذه الآية وقع على النوعين: الرياح والملئكة، ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله، وقد جعلها الله نشورًا، وحياة القلوب والأرواح بالملئكة، فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة، ولهذا — والله أعلم — فصل أحد النوعين من الآخر بالواو وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء. (التبيان في أقسام القرآن / ١٨٤-١٨٦)

١٥ ويل يومئذ للمكذبين: كرر (ويل يومئذ للمكذبين) لمعنى تكرير التخويف والوعيد. وقيل: ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراد بالآخر، كأنه ذكر شيئا

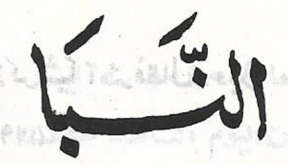
فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم كذلك الى آخرها. (القرطبي ١٩/ ١٦٩)

٢٠ الم نخلقكم من ماء مهين : تأمل كيف وقع القسم فى هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية، وحال السعداء والاشقياء فيهما، وقورنها بالحياة الأولى فى قوله: الم نخلقكم من ماءٍ مَهين، فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذالك، فحسن الأقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة، وهو الرياح والملئكة، فكان فى القسم بذالك أبين دليل وأظهر آية على صحة، ما أقسم عليه وتضمنته السورة، ولهذا كان المكذب بعد ذالك فى غاية الجحود والعناد والكفر، فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب، فلا أحسن من هذا التكرار فى هذا الموضع ولا أعظم منه موقعاً، فانه تكرر عشر مرّات، ولم يذكر إلّا فى أثر دليل أومدلول عليه عقيب بما يوجب التصديق ومايوجب التصديق به فتأمله. (التبيان فى أقسام القرآن ١٨٦، ١٨٧)

٢٥ الم نجعل الأرض كفاتا : أى: ضامة تضمّ الأحياء على ظهورها والأموات فى بطنها، وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه (القرطبى ١٩/ ١٦١)

٢٩ ذى ثلاث شعب : أى: انطلقوا إلى ظلّ دخان جهنم المتشعب الى ثلاث شعبة شعبة عن يمينهم، وشعبة عن شمالهم، وشعبة من فوقهم، والمراد أنه محيط بهم من كل جانب، كما جاء فى الآية الأخرى: أحاط بهم سرادقها (المراغى ٢٩/ ١٨٦)

٤٨ واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون : أى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: اعبدوا الله وأطيعوه واخشوا يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار، استكبروا وأصرّوا على عنادهم. روى أن النبى صلى الله عليه وسلّم أمر ثقيفًا بالصلوٰة فقالوا: لانجبو (أى: لانركع) فانها سُبّة علينا، فقال عليه السّلام: لاخير فى دين ليس فيه ركوع ولاسجود، وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: انما يقال هذا فى الآخرة حين يُدعون الى السّجود فلا يستطيعون، من جرّاء انهم لم يكونوا يسجدون فى الدنيا. (المراغى ٢٩/ ١٩٠)



٢ عن النبأ العظيم : أى: الخبر الكبير : (١) روى ابو صالح عن ابن عباس قال : هو القرآن ، دليله قوله تعالى : قل هو نبأ عظيم انتم عنه معرضون (ص ٣٨ / ٦٧، ٦٨) فالقرآن نبأ و خبر وقصص ، وهو نبأ عظيم الشان. (٢) و روى سعيد عن قتادة قال : هو البعث بعد الموت ، صار الناس فيه رجلين : مصدّق و مكذّب (٣) وقيل : امر النبى صلى الله عليه وسلم (القرطبى ١٩/١٧٠)

٧ والجبال أوتادًا : أى: وجعلنا الجبال لها كالأوتاد كى لا تميل بأهلها ، و تضرب بسكانها ، ولولاها لكانت دائمة الإضطراب لما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان ، فلا تتم الحكمة فى كونها مهادًا لهم (المراغى ٣٠/٨)

٨ وخلقنكم أزواجًا : أى: وجعلناكم أصنافًا ذكورًا و إناثًا ليتم الائتناس والتعاون على سعادة المعيشة ، وحفظ النسل وتكميله بالتربية والتعليم ، ونحو الآية قوله (الروم ٣٠/٢١) : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّة ورحمة (المراغى ٣٠/٨)

٩ سباتًا : أى: راحة لأبدانكم ، ومنه : يوم السّبت أى: يوم الراحة ، أى : قيل لبنى اسرائيل : استريحوا فى هذا اليوم ، فلا تعملوا فيها شيئًا ، وأنكر ابن الأنبارى هذا وقال : لا يقال للراحة سُبات ، وقيل : أصله التمدّد ، يقال : سبتت المرأة شعرها : إذا حلته وأرسلته" فالسّبات كالمدّ ، ورجل مسبوت الخلق : أى ممدود ، وإذا أراد الرّجل أن يستريح تمدّد ، فسمّيت الراحة سبتًا ، وقيل : أصله القَطْع ، يقال : سَبَتَ شعره سَبْتًا : حلقه ، وكأنه إذا نام انقطع عن الناس وعن الإشتغال ، فالسّبات يشبه الموت ، إلاّ أنه لم تفارقه الروح (القرطبى ١٩/ ١٧١ ، ١٧٢)

٢٣ **لابثين فيها أحقابًا** : أي : دهورًا متتابعة، وليس فيه ما يدلّ على خروجهم منها إذ لو صحّ أن الحقب ثمانون سنة او سبعون ألف سنة، فليس فيه ما يقتضي تناهي تلك الأحقاب لجواز أن يكون المراد أحقابا مترادفة، كلما مضى حقب تبعه آخر (البيضاوي ٢/ ٥٣٤)

أي : انهم سيمكثون فيها دهورًا متلاحقة يتبع بعضها بعضًا فكلما انقضى زمن تجدد لهم زمن آخر، كما قال (المائدة ٥/ ٣٧) : يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم (المراغي ٣٠/ ١٣)

٢٥ **إلّا حميمًا وغسّاقًا** : استثناء منقطع في قول من جعل البرد النوم ومن جعله من البرودة كان بدلا منه، والحميم : الماء الحارّ، قاله أبو عبيدة، وقال ابن زيد : الحميم : دموع أعينهم، تُجمع في حياض ثمّ يُسقونه، قال النحاس : أصل الحميم : الماء الحار، ومنه اشتقّ الحمّام، ومنه الحُمّى، ومنه : وظل من يحموم (الواقعة ٥٦ / ٤٣) : إنّما يراد به النهاية في الحرّ، والغسّاق : صديد أهل النار وقيحهم، وقيل : الزمهرير (القرطبي ١٩/ ١٨٠، ١٨١)

٢٦ **جزاءً وفاقا** : أي : موافقاً لأعمالهم، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، فالوِفاق بمعنى الموافقة كالقِتال بمعنى المقاتلة، و(جزاءً) نصب على المصدر أي : جازيناهم جزاءً وافق أعمالهم، قاله الفرّاء والأخفش، و قال الفرّاء أيضًا : هو جمع الوفق، والوفق واحد، وقال مقاتل : وافق العذاب المذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النّار (القرطبي ١٩/ ١٨١)

٣٣ **وكواعب أترابًا** : الكواعب جمع كاعب، وهي الناهد، قاله قتادة ومجاهد والمفسّرون، وقال الكلبي : هن الفلكات اللواتي تكعب ثُديهن، وتفلكت، وأصل اللفظ من الإستدارة، والمراد : أن ثديهن نواهد، كالرمّان ليست متدلية إلى أسفل، ويسمين نواهد وكواعب (حادي الأرواح/ ١٥٧)

٣٨ **وقال صوابًا** : أي : حقّاً وصدقًا واعتقد به، فالقول هاهنا

كأنه كناية من الإعتقاد ، والإعتقاد لا يظهر الا بالقول ، ومعنى صوابا : لا إله إلا الله ، فالكفار لا يؤذن لهم أن يتكلموا أو يعتذروا وأهل الأهواء دأنى لهم درجة الشفاعة ؟ (المظهرى ١٠/ ١٨٣)

٤٠ ويقول الكافر يليتنى كنت ترابًا : الدليل على حشر الوحوش وجوه : (١) قوله تعالى : وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون (الأنعام ٦/ ٣٨) (٢) قوله تعالى : وإذا الوحوش حشرت (التكوير ٨١/٥) (٣) حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وانها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت و وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأوه بأظلافها ، وهو متفق على صحته ، فقد رواه الامام البخارى فى صحيحه ١/ ١٨٨ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، والامام مسلم فى صحيحه ١/ ٣١٨ .

(٤) حديث أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان ، فقال : يا أبا ذر أتدرى فيما ينتطحان ؟ قال : قلت لا ، قال : لكن الله يدرى وسيقضى بينهما ، رواه الإمام أحمد فى مسنده ٥/ ١٦٢ ، ١٧٣ .

(٥) الآثار الواردة فى قوله تعالى : يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا (النبأ ٧٨ / ٤٠) وان الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض ثم يقول لها كونى ترابا فتكون ترابا فعندها يقول الكافر : يا ليتنى كنت ترابا (بدائع الفوائد ٣ / ١٨٣)

النّزعٰت

١ والنازعات غرقا : أكثر المفسّرين على أنها الملئكة التى تنزع أرواح بنى آدم من أجسامهم ، وهم جماعة كقوله : توفته رسلنا . (الأنعام ٦١/٦) وقوله : ان الذين توفّاهم الملئكة ظالمى أنفسهم (النساء ٩٧/٤) وأما قوله : قل يتوفّاكم ملك الموت الّذى وكّل بكم (السّجدة ١١/٣٢) فإما أن يكون واحداً وله أعوان ، وإمّا أن يكون المراد الجنس لا الوحدة كقوله تعالى : وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها (النحل ١٨/١٦) والنزع هو: اجتذاب الشيئ بقوة ، والإغراق فى النزع هو : أن يجتذ به إلى آخره ، و منه إغراق النزع فى جذب القوة بأن يبلغ بها غاية المد ، فيقال : أغرق فى النزع ، لثم صار مثلاً لكلّ من بالَغَ فى فعل حتى وصل إلى آخره ، والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام ، أقيم مقامه الإعطاء والتكلم ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : المنزوعات هى أنفس الكفار ، وهو قول قتادة والسدي و عطّاء عن ابن عباس ، وعلى هذا فهو فعل لازم ، وغرقًا على هذا معناه : نزعًا شديداً أبلغ ما يكون وأشده . (التبيان فى أقسام القرآن/١٧٠، ١٧١)

٣ والسّابحات سبحًا : قيل : السابحات هى النجوم تسبح فى الفلك ، كما قال تعالى : كل فى فلك يسبحون (يس ٤٠/٣٦) وقيل السفن تسبح فى الماء ، قلت : والصحيح انها الملئكة والسياق يدل عليه ، وأما السفن والنجوم فانما تسمى جارية وجوارى كما قال تعالى : ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام (الشورى ٣٢/٤٢) وقال : حملناكم فى الجارية (الحاقة ١١/٦٩) و قال : الجوار الكنّس (التكوير ١٦/٨١) ولم يسمها سابحات ، وإن أطلق عليها فعل السباحة كقوله : كلّ فى فلك يسبحون ، ويدل عليه ذكره السابقات

بعدها والمدبرات بالفاء، وذكره الثلاثة الأول بالواو؛ لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله، فإنها نزعت ونشطت وسبحت فسبقت إلى ما أمرت به فدبرته، ولو كانت السابحات هي السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء، فتأمله (التبيان في أقسام القرآن ١٧٣، ١٧٥)

٥ **فالمدبرات أمرًا**: أجمعوا على أنهم الملئكة، قال ابن عباس رضى الله عنهما: هم الملئكة وكلوا بأمور عرّفهم الله عزوجل العمل بها، وقال عبد الرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة أملاك: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت واسمه عزرائيل (الخازن ٥/٢٠٥، التبيان/١٧٦)

قال ابن عطية: لا أحفظ خلافًا أنها الملئكة، ومعناه: أنها التي تدبر الأمور التي سخرها الله تعالى وصرفها فيها كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات. (البحر المحيط ٨/٤١٩)

وفي حمل المدبرات على النجوم إيهام صحة ما يزعمه أهل الأحكام وجهلة المنجمين وهو باطل عقلاً ونقلاً، وكذا في حملها على النفوس الفاضلة المفارقة إيهام صحة ما يزعمه كثير من سخفة العقول من أن الأولياء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض وإنقاذ الغريق والنصر على الأعداء وغير ذلك مما يكون في عالم الكون والفساد على معنى أن الله تعالى فوّض إليهم ذالك، ومنهم من خصّ ذالك بخمسة من الأولياء والكلّ جهل (روح المعاني ٣٠/٢٨)

١٠ **الحافرة**: أي: في الحالة الأولى، يعنون: الحياة، من قولهم: رجع فلان في حافرته أي: في طريقته التي جاء فيها فحفرها أي: آثر فيها بمشيه، وتسميتها حافرة مع أنها محفورة كقوله تعالى: في عيشة راضية (القارعة ١٠١ / ٧) أي: منسوبة إلى الحفر والرضا، أو كقولهم: نهاره صائم، على تشبيه القابل بالفاعل (أبو السعود ٩/٩٧)

١٤ فإذا هم بالسّاهرة : والسّاهرة : الأرض البيضاء المستوية ، سميت بذلك لأن السّراب يجرى فيها ، من قولهم : عين ساهرة : جارية الماء ، وفى ضدها : نائمة ، وقيل : لأن سالكها لاينام خوف الهلكة ، وقيل : اسم لجهنم ، وقال الراغب : هى وجه الأرض. (أبو السّعود ٩/ ٩٨)

٢٤ فقال أنا ربكم الأعلى : قال ابن عطية : قول فرعون ذالك نهاية فى المخرقة ، ونحوها باق فى ملوك مصر وأتباعهم ، وإنما قال (أى: ابن عطية) ، ذالك لأن ملك مصر فى زمانه كان إسماعيليا ، وهو مذهب يعتقدون فيه إلهية ملوكهم ، وكان أول من ملكها منهم المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى عبيد الله وآخرهم العاضد ، وطهّر الله مصر من هذا المذهب الملعون بظهور الملك الناصر صلاح الدّين يوسف بن أيّوب بن سادى رحمه الله تعالى ، وجزاه عن الإسلام خيرًا (البحر المحيط ٨/ ٤٢١ ، الدر اللقيط ٨/ ٤١٨)

٣٤ الطامة الكبرى : أى : الداهية العظمى التى تطم على سائر الطامات أى : تعلوها وتغلبها ، وهى القيامة أو النفخة الثانية.

(ابو السعود ٩/ ١٠٣) :

عَبَسَ

نزلت هذه السورة فى ابن ام مكتوم عمرو بن قيس رضى الله عنه ابن خال خديجة رضى الله عنهما ، وكان أعمى وهو من المهاجرين الاولين ، استخلفه النبى صلى الله عليه وسلم على المدينة يصلى بالناس مرارًا ، وكان يؤذن بعد بلال رضى الله عنه (المواغو ٣٠/٣٨)

قال ابن العربي المالكى : أمّا قول علمائنا : انه الوليد بن المغيرة ، وقال آخرون : انه امية بن خلف ، فهذا كلّه باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدّين ، وذالك أن امية والوليد كانا بمكة ، وابن أم مكتوم كان بالمدينة ، ما حضر معهما ولاحضرا معه ، وكان موتهما كافرَيْن أحدهما قبل الهجرة والآخر فى بدر ، ولم يقصد قط أمية المدينة ، ولاحضر عنده مفردًا ولا مع أحد (أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٩٠٥، ١٩٠٦، القرطبى ١٩/ ٢١٢)

قال ابو حيّان الغرناطى : والغلط من القرطبى (و ابن العربي) كيف ينفى حضور ابن أم مكتوم معهما ، وهو وهم منه ، وكلهم من قريش ، وكان ابن أم مكتوم بها ، والسورة كلها مكية بالإجماع ، وكيف يقول : وابن أم مكتوم بالمدينة ؟ وإنه كان أولًا بمكة ثم هاجَرَ الى المدينة ، وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الأية ، وابن ام مكتوم هو : عبد الله بن سرح بن مالك بن ربيعة الفهرى من بنى عامر بن لوئ ، وأم مكتوم أم ابيه عاتكة ، وهو ابن خال خديجة رضى الله عنها (البحر المحيط ٨/ ٤٢٧)

وابن أم مكتوم من المهاجرين الاولين ، كما فى الصحيح عن البراء رضى

الله عنه قال: أول مَن قَدِم علينا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يُقرِئاننا القرآن، ثم جاء عمّار وسعد، ثم جاء عمر بن الخطّاب فى عشرين ثم جاء النبى صلى الله عليه وسلّم (مصابيح السنة ٤/ ١٢٩)

١ **عبس وتولّى**: انه امية بن خلف، وهو الذى تولّى، دون النبى صلى الله عليه وسلم، ألا ترى أنه لم يقل: عبستَ (البرهان ٢/ ٢٤٣)

١١ **انّها تذكرة**: أى: هذه السورة أو الوصية بالمساواة بين الناس فى ابلاغ العلم بين شريفهم ووَضيعهم، وقال قتادة والسّدّى يعنى: القرآن (ابن كثير ٤/ ٤١)

١٥ **بأيدى سفرة**: قال وهب بن منبّه: يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (ابن العربى ٤/ ١٩٠٢) لأن بعضهم سفير الى بعض فى الخير والتعليم والعلم (البحر المحيط ٨/ ٤٢٨)

التكوير

٥ وإذا الوحوش حشرت : الدليل على حشر الوحوش وجوه :

(١) قوله تعالى : وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون (الأنعام ٦/٣٨)

(٢) قوله تعالى : وإذا الوحوش حشرت (التكوير ٨١/ ٥)

(٣) حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم ، وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه "تنطحه بقرونها وتطاؤه بأظلافها" وهو متفق على صحته ، فقد رواه الإمام البخاري في صحيحه ١/ ١٨٨ ، ١٩٦ ، ١٩٧ و كذا الامام مسلم في صحيحه ١/ ٣١٨ .

(٤) حديث أبي ذر رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال : يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان ؟ قال : قلت لا ، قال : لكن الله يدري وسيقضي بينهما ، رواه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ١٦٢ ، ٣ ، ٧٢ .

(٥) الآثار الواردة في قوله تعالى : يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا (النبأ ٧٨/٤٠) وان الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها : كوني ترابًا فتكون ترابا ، فعندها يقول الكافر : يا ليتني كنت ترابا . (بدائع الفوائد ٣/ ١٨٣)

٧ وإذا النفوس زوجت : (١) قرنت بأشكالها ، قاله عمر رضي الله عنه : الصالح مع الصالح في الجنة ، والفاجر مع الفاجر في النار ، وهذا قول الحسن وقتادة (زاد المسير ٩/ ٣٩) أي : قرن كلّ صاحب عمل بشكله و نظيره ، فقُرن بين المتحابين في الجنة ، وقرن بين المتحابين في طاعة الشيطان في الجحيم ، فالمرء مع من أحب ، شاء أو أبى ، في مستدرك الحاكم

والمسند ٢ / ١٤٥، ١٦٠ عن النبى صلى الله عليه وسلم : لايحبّ المرء قومًا إلّا حشر معهم (زاد المعاد / ٤ / ٢٤٠) (٢) ردّت الأرواح إلى الأجساد فزوّجت بها، قاله الشعبى (زاد المسير ٩/٣٩) أى : وإذا زوجت الأرواح بأبدانها حين النشأة الآخرة، قال عكرمة والضحاك والشعبى، وفى هذا إيماء إلى أن النفوس كانت باقية من حين الموت إلى حين المعاد، فبعد أن كانت منفردة عن البدن تعود إليه (المراغى ٣٠ / ٥٥)

١٥ فلا أقسم بالخنّس : اكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التى تسير راجعة تارة و مستقيمة أخرى، وهذا القول قد قاله جماعة من المفسرين، وانها الكواكب الخمسة : زحل وعطارد والمشترى و المريخ والزهرة، وروى عن على واختاره ابن مقاتل وابن قتيبه قالوا : سمّاها خنّسًا لأنها فى سيرها تتقدم إلى جهة المشرق ثم تخنس أى : تتأخّر، وكنوسها استتارها فى مغربها كما تكنس الظباء وتفر من الوحوش إلى أن تأوى إلى كناسها وهى أكنتها، وتسمى هذه الكواكب : المتحيرة، لأنها تسير مستقيمة و تسير راجعة (مفتاح دار السعادة ٧ / ٦١٣)

ان الله قد أقسم بها كما أقسم بالليل والنهار والضحى والوالد والفجر وليال عشر والشفع والوتر وغير ذالك مما فيه التنبيه على كمال ربوبيته وعزّته وحكمته وقدرته وتدبيره، وتنوع مخلوقاته الدالة عليه المرشدة اليه، بما تضمنته من عجائب الصنعة و بديع الخلقة، وتشهد لفاطرها وبارئها بأنه الواحد الأحد، الذى لاشريك له، وأنه الكامل فى علمه و قدرته ومشيئته وحكمته وربوبيته وملكه، و أنها مسخّرة مذ للة منقادة لأمره مطيعة لمراده منها، ففى الإقسام بها تعظيم لخالقها تبارك وتعالى، وتنزيه له عما نسبه إليه أعداؤه الجاحدون، المعطلون لربوبيته و قدرته و مشيئته ووحدانيته، وأنّ من هذه عبيده و مماليكه وخلقه و صنعه

وإبداعه فكيف تجحد ربوبيته وإلهيته ؟ وكيف تنكر صفات كماله ونعوت جلاله ؟ وكيف يسوغ لذى حس سليم وفطرة مستقيمة تعطيلها عن صانعها أو تعطيل صانعها عن نعوت جلاله وأوصاف كماله وعن أفعاله ؟ فإقسامه بها أكبر دليل على فساد قول نوعى المعطلة والمشركين الذين جعلوها آلهة تعبد، مع دلائل الحدوث والعبودية، والتسخير والافتقاد عليها، وأنها أدلة على بارئها وفاطرها، وعلى وحدانيته، وأنه لا تنبغى الربوبية والإلهية لها بوجه ما، بل لا تنبغي إلا لمن فطرها وبرأها كما قال القائل :

تأمل سطور الكائنات فإنها	من الملك الأعلى اليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها	ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وقال آخر :

فوا عجبا كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده جاحد ؟
ولله فى كل تحريكة	وتسكينة أبداً شاهد
وفى كل شيء له آية	تدل على أنه واحد

فلم يكن إقسامه بها سبحانه مقررا بذلك علم الأحكام النجومية، كما يقوله الكاذبون المفترون، بل مقرراً لكمال ربوبيته ووحدانيته وتفرده بالخلق والإبداع وكمال حكمته وعلمه وعظمته . (مفتاح دار السعادة ٢/ ٢١٣، ٢١٤) .

١٧ - عَسعَس : قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس : أدبر، قال : وكان بعض أصحابنا يزعم أن عسعس معناه : دنا من أوله وأظلم، قال ابن جريج : قال مجاهد : هو اقباله، وقال قتادة : هو إدباره، وإليه ذهب الكلبى ؛ وكان ابو حاتم وقطرب يذهبان إلى أن هذا الحرف من الأضداد، وكان ابو عبيدة يقول ذلك أيضاً، وقال أبو اسحاق ابن السرى : عسعس الليل : إذا أقبل، وعسعس : إذا أدبر، قال : والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام فى اوله وإدباره فى آخره .
(تهذيب اللغة ١/ ٧٨، ٧٩، لسان العرب ٦/ ١٣٩) .

١٩ - انه لقول رسول كريم : هو جبريل عليه السلام، ولا يجوز أن يكون أراد به أنه قول النبى صلى الله عليه وسلم، وإن كان النبى صلى الله عليه وسلم رسولاً كريمًا، لأن الآية وردت فى معرض الرد والتكذيب لمقالة الكفار الذين قالوا ان محمداً صلى الله عليه وسلم تقوّله وهو قوله، فقال الله عزّوجل: انه لقول رسول كريم، فأضافه إلى جبريل الذى هو أمين وحيه، وهو فى الحقيقة قول الله تعالى لكنه أضيف إلى جبريل عليه السّلام لانه جاء به من عند الله، وقوله تعالى: ذى قوة يدل على هذا، كما قال فيه الله تعالى: ذومرّة فاستوى (النجم ٥٣/٦) وقال أيضًا مطاع ثمّ أمين، هذه كلها صفة جبريل عليه السّلام (التعريف والإسلام / ١٨٠، ١٨١)

٢٤ - وما هو على الغيب بضنين : الغيب: الوحى، كما فى قوله تعالى فى سورة التكوير: وما هو على الغيب بضنين، يعنى على الوحى، أى: على ما يوحى اليه ببخيل (قاموس القرآن / ٣٤٦) أى: الوحى وخبر السّماء (الخازن ٢١٥/٧) الغيب: القرآن و خبر السّماء (القرطبى ٢٤٢/١٩) أى: ببخيل يشح به لايبلغ ماقيل له ويبخل، كما يفعل الكاهن حتى يعطى حلوانه وهو أجرة الكاهن. (البحر ٤٣٥/٨، الخازن ٢١٥/٧)

٢٨ - لمن شاء منكم أن يستقيم : بدل من العالمين. وهو بدل بعض من كل. وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل فى قوة ذكر عاملين مقصودين، فان جهة كونه ذكرًا للعلمين كلّهم غير جهة كونه ذكرًا لأهل الاستقامة، فانه ذكر للعموم بالصّلاحية والقوة وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع، فكما أن البدل أخص من المبدل منه فالعامل المقدر فيه أخصّ من العامل الملفوظ فى المبدل منه، ولا بد من هذا فتأمله. وقوله: لمن شاء منكم رد على الجبرية، القائلين بأن العبد لامشيئة له، أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لاإرتباط بينهما وبينه إلّا مجرد اقتران عادى من غير أن يكون سببًا فيه، وقوله: وما تشاءون إلّا أن يشاء الله ردّ على القدرية، القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بايجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وجد.

ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين ، فان قال الجبرى : هو سبحانه لم يقل : إن الفعل واقع بمشيئة العبد ، بل أخبر أن الاستقامة تحصل عند المشيئة ونحن قائلون بذلك ؟ وقال القدرى : قوله : وما تشاءون إلا أن يشاء الله مختلفة ، فمشيئة العبد هى موجبة للفعل التى يقع بها ، ومشيئة الله لفعله هو أمره بذلك ، ونحن لا ننكر ذلك ؟

فالجواب : أن هذا من تحريف الطائفتين ، أما الجبرى فيقال له : اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه ومشكله وسائر اعراضه التى لا تأثير لها فى الفعل ، فان نسبة جميع أعراضه الى الفعل فى عدم التأثير فنسبة ارادية عندك ، والاقتران حاصل بجميع أعراضه ، فما الذى أوجب تخصيص المشيئة سوى الله سبحانه فى فطر الناس أو عقولهم أو شرائعهم ، بين نسبة المشيئة والإرادة إلى الفعل ، ونسبة سائر أعراض الحىّ إذا كان عندك ليس إلا مجرد الإقتران عادة ؟ والإقتران العادى حاصل مع الجميع .

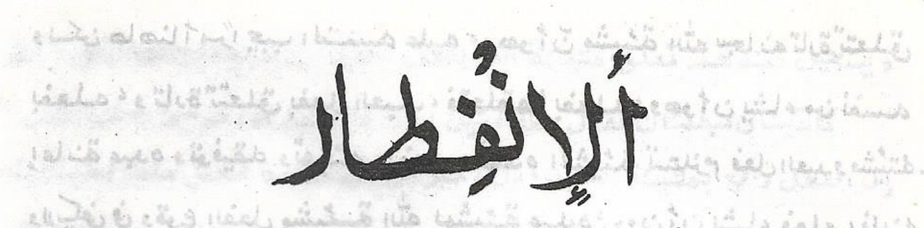
وأما القدرى فتحريفه أشد ، لأنه حمل المشيئة على الأمر وقال المعنى : وما تشاءون إلا بأمر الله ، وهذا باطل قطعًا ، فان المشيئة فى القرآن لم تستعمل فى ذالك ، وانما استعملت فى مشيئة التكوين كقوله : ولو شاء الله ما اقتتلوا ، (البقرة ٢/٢٥٣) وقوله : ولو شاء ربك ما فعلوه (الأنعام ٦/١١٢) وقوله : أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى النّاس جميعا (الرعد ١٣/٣١) وقوله : ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها (السجدة ٣٢/١٣) ونظائر ذالك ، مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الامر البتة .

والذى دلت عليه الأيات مع سائر أدلة التوحيد وأدلة العقل الصريح أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التى لا توجد إلا بمشيئة الله تعالى ، فما لم يشأ لم يكن البتة ، كما أن ما شاء كان ولابد .

ولكن هاهنا أمرًا يجب التنبيه عليه، وهو أنّ مشيئة الله سبحانه تارة تتعلق بفعله، وتارة تتعلق بفعل العبد، فتعلقها بفعله، وهو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته. ولايكفي في وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده، دون أن يشاء فعله، فانه سبحانه قد يشاء من عبده المشيئة وحدها. فيشاء العبد الفعل، ويريده ولا يفعله، لأنه لم يشأ من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له. وقد دلّ على هذا قوله تعالى: وما يذكرون إلّا أن يشاء الله (المدثر ٧٤/ ٥٦) وقوله: وما تشاءون إلّا أن يشاء الله رب العلمين (الانسان ٧٦/ ٤)

وهاتان الأيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب، ولكل منها عبودية مختص بها، فعبودية الأية الأولى: الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي، وعبودية الثانية: الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه واستنزال التوفيق والعون منه، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء، ولا يفعل حتى يجعله الله كذالك، وقوله: رب العلمين ينتظم ذالك كلّه ويتضمنّه، فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها.

(التبيان في أقسام القرآن/ ١٦٦- ١٦٩)



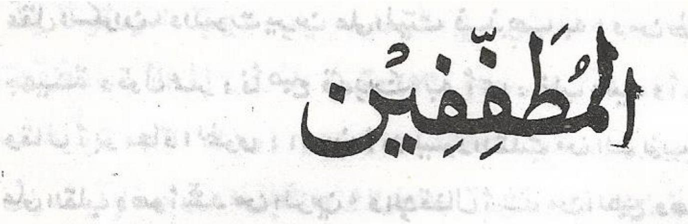
الانفطار

١- انفطرت : أى : تشققت بأمر الله لنزول الملئكة كقوله تعالى : ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملئكة تنزيلا (الفرقان ٢٥/٢٥)
وقيل : تفطرت لهيبة الله تعالى، والفطر : الشق ، يقال : فطرته فانفطر ، فطر ناب البعير أى : طلع ، فهو بعير فاطر، وتفطر الشيء : تشقق ، وسيف فطار أى : فيه شقوق (القرطبى ١٩/ ٢٤٤)

٤- بعثرت : قال ابن عباس رضى الله عنهما : بحثت ، وقال السدى : أثيرت لبعث الأموات ، وقال الفراء : أخرج ما فى بطنها من الذهب والفضة (البحر المحيط ٨/ ٤٣٦)

٦- ما غرك : قال الزجاج : ما خدعك وسول لك حتى أضعت ما وجب عليك ؟ وقال غيره : المعنى : ما الذى أمنك من عقابه وهو كريم متجاوز إذ لم يعاقبك عاجلا ؟ (زاد المسير ٩/ ٤٧)

٧- الذى خلقك : أى : قدر خلقك من نطفة ، فسواك فى بطن أمك ، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك ، فعدلك أى : أمالك وصرفك إلى أى صورة ما شاء ، إما حسنا وإما قبيحا ، وإما طويلا وإما قصيرا.
(القرطبى ١٩/ ٢٤٦)



١- **المُطَفِّفِين** : قال علماء اللغة : المطففون هم الذين ينقصون المكيال والميزان، وقيل له المطفف، لانه لايكاد يسرق فى المكيال والميزان إلّا الشيء الطفيف، مأخوذ من طَفّ الشيء، وهو جانبه، ومنه الحديث: كلكم بنو آدم طفّ الصاع، يعني: بعضكم قريب من بعض، فليس لأحدٍ على أحد فضل إلّا بالتقوى (ابن العربي ٤/١٩٠٧)

قال عبد الملك بن الماجشون : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن التطفيف، وقال: ان البركة فى رأسه، وقال: بلغني أن كيل فرعون كان طفافًا مسحًا بالحديدة. قال علماء الدين : التطفيف فى كل شيء، فى الصلوٰة والوضوء والكيل والميزان. ابن العربي ٤/١٩٠٨)

٢- **اذا اكتالوا على الناس** : صفة كاشفة للمطففين، شارحة لكيفية تطفيفهم، الذى استحقوا به الذم والدعاء بالويل، أى: اذا اكتالوا من الناس مكيلهم بحكم الشراء ونحوه يأخذونه وافيًا وافرًا (ابوالسعود ٩/ ١٢٤)

أى : من الناس، فعلى بمعنى: مِن، فى قول المفسرين واللغويين، قال الفراء: (على) و (من) يعتقبان فى هذا الموضع، لانك اذا قلت: اكتلت عليك فكأنك قلت: أخذت ما عليك كيلًا، وإذا قلت: اكتلت منك فهو كقولك: استوفيت منك كيلًا، قال الزجاج: المعنى: اذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، وكذالك إذا اتّزنوا، ولم يذكر اذا اتّزنوا، لان الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فيما يُكال ويوزن، فأحدهما يدل على الأخر (زاد المسير ٩/٥٢)

١٤- **كلّا بل ران** : قال أبو عبيدة: غلبَ عليها، والخمرُ ترينُ على

عقل السكران ، والموت يرين على الميّت فيذهب به ، ومن هذا حديث أسيفع جهينة وقول عمر : فأصبح قد رِينَ به أى : غلب عليه وأحاط به الرين .
وقال أبو معاذ النحوى : الرين أن يسود القلب من الذنوب ، والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين ، والإقفال أشد من الطبع وهو أن يُقفل على القلب ، وقال الفراء : كثرت الذنوب والمعاصى منهم فأحاطت بقلوبهم فذالك الرين عليها . وقال مجاهد : هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب فتغشاه فيموت القلب ، وفى سنن النسائى والترمذى من حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فان هو نزع واستغفروتاب صُقِل قلبه ، وإن زاد زيدَ فيها حتى تعلو قلبه ، وهو الران الذى ذكرالله : كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، وقال عبد الله بن مسعود : كلّما أذنب نُكت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسودّ القلب كلّه . فاخبر سبحانه أن ذنوبهم التى اكتسبوها أوجبت لهم رينًا على قلوبهم ، فكان سبب الرّان منهم ، وهو خَلْقُ الله فيهم ، فهو خالق السّبب ومسبّبه ، لكن السبب بإختيار العبد ، والمسبب خارج عن قدرته واختياره .
(شفاء العليل / ١٦٤)

١٥ - **لمحجوبون** : قال ابن عباس : انهم عن النظر الى ربهم يومئذ لمحجوبون ، والمؤمن لا يحجب عن رؤيته ، وقال مالك بن أنس : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى رأوه . وقال الشافعى : لما حجب قومًا بالسُّخط دلّ على أن قومًا يرونه بالرضى ، وقال الزجاج : فى هذه الآية دليل على أن الله عزوجل يُرى فى القيامة ، ولولا ذالك ما كان فى هذه الآية فائدة ، ولا خسّت منزلة الكفار بأنهم يحجبون عن ربهم (زاد المسير ٩/ ٥٦، ٥٧)

٢٦ - **فليتنافس المتنافسون** : أى : فليجدّوا فى طلبه وليحرصوا عليه بطاعة الله ، والتنافس : كالتشاحّ على الشئ والتنازع فيه (زاد المسير ٩/ ٥٦)

٣٣ - وما أرسلوا عليهم حافظين : أى : ان الله تعالى : لم يرسل الكفار رقباء على المؤمنين ، ولم يؤتهم سلطة مما سبتهم على أفعالهم ، ولتعريف باطلها من صحيحها ، فلا يسوغ لهم أن يعيبوا عليهم مايعتقدونه ضلالاً بعقولهم الفاسدة ، وانما كلّفهم أن ينظروا شؤن أنفسهم فيعدّلوا منها ما اعوجّ ، فاذا فعلوا ذالك قاموا بما يجب عليهم فى هذه الحياة.

(المراغى ٢٩ / ٨٥) :

الإنشقاق

٦ - انك كادح : أى : ايها الانسان انك عاملٌ فى هذه الحياة و
مجدّ فى عملك ، ومبالغ فى إدراك الغاية إلى أن تنتهى حياتك ، وإن كنت لا تشعر
بجدك ، أو تشعر به وتلهو عنه ، وكل خطوة فى عملك فهى فى الحقيقة خطوة
الى أجلك ، وهناك لقاء الله ، فالموت يكشف عن الروح غطاء الغفلة ويبدو لها
وجه الحق ، فتعرف من الله ما كانت تنكره ، ويوم البعث يرتفع الإلتباس ، و
يعرف كل عامل ما جرّ اليه عمله (المراغى ٢٩/٩٠)

٩ - وينقلب الى أهله مسرورا : أزواجه فى الجنّة من الحور العين،
مسرورًا أى : مغتبطًا قرير العين ، وقيل : إلى أهله الذين كانوا له فى الدنيا ،
بخلاصه وسلامته ، والأول قول قتادة أى : إلى اهله الذين قد أعدهم الله
له فى الجنة (القرطبى ١٩/ ٢٧٢)

١٤ - انه ظنّ أن لن يحور : تعليل لسروره فى الدنيا أى : ظن أن
لن يرجع الى الله تعالى تكذيبا للمعاد - (ابو السعود ٩/ ١٣٣)

١٦ - فلا أقسم بالشفق : الشفق هو الحمرة التى تشاهد فى
الأفق الغربي بعد الغروب ، وأصله رقة الشيء ، يقال : ثوب شفق أى : لا
يتماسك لرقته ، ومنه : أشفق عليه أى : رقّ له قلبه ، قال :

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقًا ❊ والموت أكرم نزّال على الحُرَم

وسق أى : ضم وجمع ، يقال : وسقه فاتسق واستوسق أى : جمعه فاجتمع ،
وإبلٌ مستوسقة أى : مجتمعة ، قال :

إنّ لنا قلائصًا حقائقًا ❊ مستوسقات لم يجدن سائقًا

واتّسق أى : إجتمع نوره وصار بدراً ، لتركبن أى : لتلاقنّ ، والطبق : الحال المطابقة لغيرها ، قال الأقرع حابس :

إنّى إمرؤٌ حلبت الدهرَ أشطره

وساقنى طبق منه إلى طبق ،

والمراد : لتركبن أحوالاً بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أرفع من بعض ، وهى الموت وما بعده . (المراغى ٢٩/ ٩٣، ٩٤)

١٩ - لتركبن طبقاً عن طبق : الظاهر أنه جواب القسم ، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه ، ولتركبن وما بعده مستأنف (التبيان فى أقسام القرآن / ١٢٥) قيل : الخطاب فى الآية للنبى صلى الله عليه وسلم وله ثلاث معان : (١) لتركبن سماءً بعد سماءٍ ، حتى تنتهى إلى حيث يصعدك الله ، هذا قول ابن عباس فى رواية مجاهد وقول مسروق والشعبى ، قالوا : والسماء طبق ، ولهذا يقال للسماوات : السبع الطباق . (٢) والمعنى الثانى : لتصعدون درجة بعد درجة ومنزلة بعد منزلة ورتبة بعد رتبة ، حتى تنتهى الى محل القرب والزلفى من الله . (٣) والمعنى الثالث : لتركبن حالاً بعد حال من الأحوال المختلفة التى نقل الله فيها رسوله صلى الله عليه وسلم من الهجرة والجهاد ونصره على عدوه وإدالة العدو عليه تارة ، وغناه وفقره وغير ذالك من حالته التى تنقل فيها إلى أن بلغ ما بلغه إياه . ومن قال : الخطاب للإنسان أو الجملة الناس فالمعنى واحد ، وهو تنقل الإنسان حالاً بعد حالٍ ، من حين كونه نطفة الى مستقره من الجنة أو النار ، فكم بين هذين من الأطباق والأحوال للإنسان ، وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا ، قال ابن عباس : لتصيبون الأمور حالاً بعد حالٍ (التبيان فى أقسام القرآن / ١٤٦)

٢٣ - والله أعلم بما يوعون : الوعى : حفظ القلب الشيءَ ، وفى الحديث : نضّر الله إمرأً سمع مقالتى فوعاها ، فرُبّ مبلّغٍ أوعى من

سامع ، قال الأزهرى : الوَعِيُّ : الحافظ الكيّس الفقيه ، وفى حديث أبى أمامة : لا يعذّب الله قلبًا وعى القرآن ، قال ابن الاثير (فى النهاية ٢٠٨/٥) : أى عَقَلَه إيماناً به وعملاً ، فأما من حَفِظَ ألفاظه وضيّع حدوده فانه غير واع له ، قال الازهرى عن الفراء فى قوله تعالى : والله أعلم بما يوعون ، قال : الإيعاء ما يجمعون فى صدورهم من التكذيب والإثم ، وقال الجوهرى : أى يُضمرون فى قلوبهم من التكذيب ، وفى الحديث : الإستحياء من الله حق الحياء أن لا تنسوُا المقابر والبِلى ، والجوفَ وما وعى ، أى : ما جمع من الطعام والشراب حتى يكونا من حِلّهما (لسان العرب ١٥ / ٣٩٦).



١- والسّماءِ ذاتِ البروج : فسّرت بالنجوم أو نوع منها ، وفسرت بالقصور العظام ، وكل ذالك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته ، فان السّماء كرة متشابهة الأجزاء ، والشكل الكرى لا يتميز منه جانب عن جانب بطول ولا قصر ولا وضع ، بل هو مساوى الجوانب ، فجعل هذه البروج فى هذه الكرة على إختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل ، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر ولا عالم ولا مريد ولا حيّ ولا حكيم ولا مباين للمفعول ، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم ربًّا بائنًا قادرًا فاعلًا بالإختيار ، عالمًا بتفاصيله حكيمًا مدبرًا له ، فبروج السّماء هى منازلها ، أو منازل السيارة التى فيها ، من أعظم آياته سبحانه ، فلهذا أقسم بها مع السّماء (التبيان/١١٩)

٢- واليوم الموعود : أقسم باليوم الموعود ، وهو يوم القيامة ، وهو المقسم به وعليه (التبيان/١٢٠ ، مفحمات الأقران/١١٦)

٣- وشاهد ومشهود : قيل : شاهد هو يوم الجمعة ومشهود يوم عرفة ، وقال النخعى : شاهد يوم النحر ، وقال مجاهد : آدم (مفحمات الأقران/١١٦) أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود مطلقين غير معينين ، وأعم المعانى فيه : أنه المدرِك والمدرَك ، والعالم والمعلوم ، والرائى والمرئى ، وهذا أليق المعانى به ، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل ، لا على وجه التخصيص ، فان قيل فما وجه الإرتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها ؟ قيل وهى بحمد الله فى غاية الإرتباط ، والإقسام بها متناول لكل موجود فى الدنيا والآخرة ، وكل منها آية

مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته، فأقسم بالعالم العلوي، وهي السماء وما فيها من البروج، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرًا، الذي هو مظهر ملكه وأمره ونهيه وثوابه وعقابه ومجمع أوليائه وأعدائه والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذالك كله، وهو الشاهد والمشهود (التبيان / ١٢٠)

فمن نوّع الخليقة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين، كما نوّعها مرئى لنا وغير مرئى كما قال: فلا أقسم بما تبصرون وبما لا تبصرون (الحاقة ٦٩/ ٣٨، ٣٩) كما نوّعها الى أرض وسماء وليل ونهار، وذكر وأنثى، وهذا التنويع والإختلاف من آياته سبحانه، كذالك نوّعها الى شاهد ومشهود، وأيضًا يوم القيامة مشهود، كما قال تعالى: ذالك يوم مجموع له الناس وذالك يوم مشهود (هود ١١/ ١٠٣) يشهده الله وملئكته والإنس والجن والوحش من آياته، والمشهود من آياته، وأيضًا فكلامه مشهود، كما قال تعالى: وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهودًا (الإسراء ١٧/ ٧٨) تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فالمشهود من أعظم آياته وكذالك الشاهد فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل فى هذا القسم، فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلّا على وجه التمثيل، وأيضًا فكتاب الأبرار فى عليين يشهده المقربون، فالكتاب مشهود والمقربون شاهدون (التبيان فى أقسام القرآن / ١٢١، ١٢٢)

٧ - قتل أصحاب الأخدود : هم ذو نواس الحميرى وجنوده وكان قد خدّ الأخاديد وهى: الخنادق وأضرم فيها النيران فجعل يلقى فيها كلّ من وحد الله واتبع العبد الصالح الذى كان فى زمانه وهو عبد الله بن الثامر، حتى أحرق نحوًا من عشرين ألفًا، وذو نواس هذا اسمه زرعة بن تبان بن سعد الحميرى، وكان أيضًا يسمّى بيوسف، وكان له غدائر من شعر تنوس أى: تضطرب فسمى ذا نواس، وكان فعل هذا أيضًا بأهل نجران فأفلت منهم رجل اسمه دوش ذو ثعلبان، فساق

الحبشة لينتصر بهم فملكوا اليمن وهلك ذونواس فى البحر، ألقى نفسه فيه (التعريف والاعلام / ١٨١، ١٨٢) - ذونواس (..... - ١٠٢ ق هـ = ... - ٥٢٤ م) هو ذونواس الحميرى آخر ملوك حمير فى اليمن، فى اسمه واسم أبيه إضطراب، كان يدين باليهودية، وبلغه أن أهل نجران مقبلون على النصرانية فسار إليهم وحفر أخاديد مستطيلة، وملأها جمرًا، وجمع أعيان المتنصرين منهم فعرضهم على النار، فمن رجع الى اليهودية نجا ومن أبى هوى (ابن الأثير ١/ ١٣٩، نهاية الأدب للنويرى ١٥/ ٣٠٣)

١٥- ذو العرش: أضاف العرش الى نفسه كما تضاف اليه الأشياء العظيمة الشريفة، وهذا يدل على عظمة العرش وقربه منه سبحانه وإختصاصه به، بل يدل على غاية القرب، كما يضيف إلى نفسه ب ذو صفاته القائمة به كقوله: ذو الجلال والإكرام (الرحمن ٥٥/ ٢٧) فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابقة لكان لافرق أن يقال: ذو العرش وذو الأرض (التبيان/ ١٢٥)

١٥- المجيد: وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه، وأمّا من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء، والمخلوق انما يصير مجيدًا بأوصافه وأفعاله، فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيدًا وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟ تعالى الله عما يقول المعطلون علوًا كبيرًا، بل هو المجيد الفعال لما يريد، والمجد فى لغة العرب كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير، وأحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل عليه السلام كما فى سورة هود ١١/ ٧٣: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد (التبيان/ ١٢٥)

١٦- فعّال لما يريد: دليل على أمور: (١) انه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته. (٢) أنه لم يزل كذالك لأنه ساق ذالك فى معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذالك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادمًا لهذا الكمال فى وقت من الأوقات، وقد قال تعالى: أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون (النحل ١٦/ ١٧)

وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن. (٣) انه اذا أراد شيئاً فعله، فان (ما) موصولة عامة أى: يفعل كل ما يريد أن يفعله. وهذا فى إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر، فان أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل وإن أراده، حتى يريده من نفسه أن يجعله فاعلاً، وهذه هى النكتة التى خفيت على القدرية والجبرية، وخبطوا فى مسألة القدر لغفلتهم عنها، فانّ هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الرب فاعلاً، و ليستا متلازمتين، وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس، فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله، وقد يريد فعله، ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل فلا يوجد الفعل، فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر الى قول النبى صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربه قوله للعبد يوم القيامة: قد أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب أبيك: أن لا تشرك بي شيئاً، ولم يقع هذا المراد، لانه لم يرد من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له. (٤) أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق فانه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثَمّ فعال لما يريد إلا الله وحده (٥) اثبات ارادة متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصّه، وهذا هو المعقول فى الفطر، وهو الذى يعقله الناس من الإرادة فشأنه تعالى أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد (٦) أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فاذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأن يجيئ يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يرى نفسه لعباده، وأن يتجلى لهم كيف شاء، وأن يخاطبهم ويضحك اليهم وغير ذالك مما يريد سبحانه، لم يمتنع عليه فعله، فانه فعّال لما يريد، وانما تتوقف صحة ذالك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر به وجب التصديق به، و كان ردّه ردّاً لكماله الذى أخبر به عن نفسه (التبيان/١٢٦-١٢٨)

٢٢ - فى لوح محفوظ : أكثر القراء على الجر، صفة للوح ، و فيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه، وهو فى نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان، فوصفه سبحانه بأنه محفوظ فى قوله : انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (الحجر ١٥/٩) و وصف محله بالحفظ فى هذه السورة ، فالله سبحانه حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير - (التبيان / ١٣٠)

الطّارِقْ

١ـ والسّماء والطارق : قد فسّره بأنه النجم الثاقب، الذى يثقب ضوءه، والمراد به جنس، لا نجم معيّن، ومن عيّنه بأنه الثريا أو زحل فإن أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه، والمقصود أنه سبحانه أقسم بالسّماء ونجومها المضيئة، وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته، وسمى النجم طارقا، لأنه يظهر بالليل بعد إختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذى يطرق الناس أو أهله ليلاً، قال الفراء : ما أتاك ليلاً فهو طارق، وقال الزجاج والمبرد : لا يكون الطارق نهاراً، ولهذا تستعمل العرب الطروق فى صفة الخيال كثيراً (التبيان / ١٣١)

٨ ـ انه على رجعه لقادر : أى على رجعه اليه يوم القيامة، كما هو قادر على خلقه من ماءٍ هذا شأنه، هذا هو الصحيح فى معنى الآية، وفيها قولان ضعيفان : (١) قول مجاهد : على ردّ الماء فى الإحليل لقادر (٢) قول عكرمة والضحاك : على ردّ الماء فى الصلب، والقول الصواب هو الأول لوجوه : (١) أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد. (٢) أن ذالك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء فى الإحليل (٣) أنه لم يأت لهذا المعنى فى القرآن نظير فى موضع واحد، ولا أنكره أحد حتى يقيم سبحانه الدّليل عليه (٤) أنه قيّد الفعل بالظرف وهو قوله : يوم تُبلى السّرائر، وهو يوم القيامة أى : أن الله قادر على رجعه اليه حيّا فى ذالك اليوم (٥) أن الضمير فى (رجعه) هو الضمير فى قوله : فماله من قوّة ولا ناصر، وهذا للإنسان قطعًا لا للماءِ (٦) أنه لا ذكر للإحليل حتى يتعين كون المرجع اليه، فلو قال قائل : على رجعه إلى الفرج الذى صبّ فيه،

لم يكن فرق بينه وبين هذا القول، ولم يكن أولى منه (٧) أن ردّ الماء الى الإحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف، ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة، وإن كان مقدورًا للرب تعالى، ولكن هو لم يجره ولم تجر به العادة، ولا هو ممّا تكلم الناس فيه نفيًا أو إثباتًا، ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه وينبه على منكريه، وهو سبحانه انما يستدل على أمر واقع ولا بد، إمّا قد وقع ووجد أو سيقع - (٨) أنه سبحانه دعا الإنسان الى النظر فيما خلق ليرد نظره عن تكذيبه بما أخبر به، وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء في إحليله بعد مفارقته له حتى يدعوه إلى النظر فيما خلق منه، ليستنتج منه صحة إمكانه رد الماء (٩) انه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خلقه ورد الماء في الإحليل بعد خروجه، ولا تلازم بينهما حتى يجعل أحدهما دليلًا على إمكان الآخر، بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد، والخلق الأول والخلق الثاني، والنشأة الأولى والنشأة الثانية، فانه ارتباط من وجوه عديدة، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الأخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر، فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر (١٠) أنه سبحانه نبّه بقوله: إن كلّ نفس لّما عليها حافظ، على أنه قد وكّل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه فلا يضيع منه شيئ (التبيان في أقسام القرآن / ١٣٥ - ١٣٧)

١١ - **والسّماء ذات الرّجع**: أقسم بالسماء، ورجعها بالمطر، والأرض، وصدعها بالنبات، قال الفراء: تبدي بالمطر ثم ترجع في كل عام، وقال أبو اسحاق: الرجع: المطر، لأنه يجيئ ويرجع ويتكرر، وكذالك قال ابن عباس: تبدي بالمطر ثم ترجع به في كل عام، والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل، ورجع السّماء: هو إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالًا بعد حالٍ على مرور الأزمان، ترجعه رجعًا أي: تعطيه مرّة بعد مرّة، والخير كله من قِبَل السّماء يجيئ.

(التبيان في أقسام القرآن / ١٣٩)

الأعلى

تأمّلْ سطورَ الكائنات فإنها
من الملِك الأعلى اليك رسائل
وقد خُطّ فيها ـ لو تأمّلت خطّها ـ
ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطل

(التبيان / ٢١١)

٩ ـ فذكر إن نفعت الذكرى : (١) قال الجرجاني: التذكير واجب وان لم ينفع ، والمعنى : فذكّر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع فحذف ، كما قال : سرابيل تقيكم الحرّ (النحل ١٦ / ٨١) (٢) إنّ (إنْ) بمعنى (ما) أى: فذكر ما نفعت الذكرى ، فتكون (إنْ) بمعنى (ما) لا بمعنى الشرط ، لأنّ الذكرى نافعة بكل حال ، قاله ابن شجرة (القرطبى ٢٠ / ٢٠) (٣) قال قطرب: أنّ (إنْ) معناه (قد) أى: فذكّر قد نفعت الذكرى (البرهان فى علوم القرآن ٤ / ٢١٨)

١٤ ـ قد أفلح مَن تزكّى : أخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى ذالك : مَن شهد أن لا إله إلّا الله ، وخلع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله (وذكر اسم ربه) بلسانه وقلبه ، لا بلسانه مع غفلة القلب ، إذ مثل ذالك لا ثواب فيه ، فلا ينبغى أن يدخل بما يترتّب عليه الفلاح (روح المعانى ٣٠ / ١٢٦)

وأقول : يجوز أن يقال : تزكّى أى : تطهّر من الشرك بأن آمن بقلبه ، وذكر اسم ربه أى : قال لا اله إلّا الله ، فصلّى أى : الصلوة المفروضة ـ

(روح المعانى ٣٠ / ١٢٦)

الغَاشِيَة

١- هل أتاك : هل بمعنى : قد ، كقوله : هَلْ أَتَى على الإنسان (الإنسان ٧٦/١) قاله قطرب أى : قد جاءك حديث الغاشية ، أى : القيامة التى تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها ، قاله أكثر المفسرين وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : الغاشية : النار تغشى وجوه الكفار ، ورواه أبو صالح عن ابن عباس ، ودليله قوله تعالى : وتغشى وجوههم النار (ابراهيم ١٤/٥٠) وقيل : تغشى الخلق (القرطبى ٢٠/٢٦)

٣- عاملة ناصبة : أى : ظهر لهم يومئذ انها كانت خاشعة عاملة ناصبة فى الدنيا من غير نفع ، وأمّا قبل ذالك اليوم ، فكانوا يحسبون انهم يحسنون صنعا ، وهؤلاء النّسّاك من اليهود والنصارى (روح المعانى ٣٠/١٢٩)

روى عن الحسن قال : لما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام أتاه راهب شيخ كبير متقهِّل (أى : شعث وسخ) عليه سواد ، فلما رآه عمر بكى ، فقال له : يا أمير المؤمنين ما يبكيك ؟ قال : هذا المسكين طلب أمرًا فلم يصبه ، ورجا رجاءً فأخطأه ، وقرأ قول الله عزوجل : وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة . (القرطبى ٢٠/٢٧)

٥- ءانية : الآنى : الذى قد انتهى حرّه ، من الإيناء بمعنى التأخير : ومنه أنيت وآذيت ، وآناه يؤنيه ايناء أى : أخره وحبسه وأبطأه ، ومنه : يطوفون بينهما وبين حميم آنٍ (الرحمن ٥٥/٤٤) وفى التفاسير : من عين آنية أى : تناهى حرّها ، فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت (القرطبى ٢٠/٢٩)



١- والفجر : إن اريد به جنس الفجر كما هو ظاهر اللفظ فانه يتضمن وقت صلاة الصبح ، التي هي أولى الصلوات فافتتح القسم بما يتضمن أولى الصلوات وختمه بقوله : والليل اذا يسر ، المتضمن لآخر الصلوات ، وإن أريد بالفجر فجر مخصوص فهو فجر يوم النحر وليلته ، التي هي ليلة عرفة ، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام ، وما رؤى الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها ، وذالك الفجر فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند الله ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أفضل الأيام عند الله يوم النحر ، رواه أبوداود بإسناد صحيح ، وهو آخر أيام العشر ، وهو يوم الحج الأكبر ، كما ثبت في صحيح البخاري وغيره - وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله بريء من المشركين ورسوله ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان - (التبيان / ٥١)

٢- وليال عشر : هي عشر الأضحى ، كما أخرجه أحمد والنسائي عن جابر مرفوعًا ، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن عباس ، وأخرج من طريق عنه أيضًا : أنه العشر الأواخر من رمضان (مفحمات الأقران / ١١٧)

٣- والشفع والوتر : ذكر سبحانه من جملة هذه الأقسام : الشفع والوتر ، إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر ، في الأمكنة والأزمنة والأعمال ، فالصفا والمروة شفع ، والبيت وتر ، والجمرات وتر ، ومنى ومزدلفة شفع وعرفة وتر - وأما الأعمال فالطواف وتر ، وركعتاه شفع ، والسعي بين الصفا والمروة وتر ، ورمي الجمار وتر ، كل ذالك سبع سبع ، وهو الأصل ، فان الله وتر يحب الوتر ، والصلات

منها شفع ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع، فتكون كلّها وتر، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشيت الصّبح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صلّيت، وأما الزمان فان يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع، وهذا قول أكثر المفسّرين (التبيان/ ٥٢)

وعرف الفجر بالّلام إذ كل أحد يعرفه، ونكر الليالى العشر لأنها تعرف بالعلم، وأيضًا فان التنكير تعظيم لها، وفى تعريف الفجر مايدل على شهرته، وأنه الفجر الذى يعرفه كل أحد ولا يجهله (التبيان/ ٥٤)

٥ - لِذِى حِجر: أى: لذى لُبّ وعقل؛ وأصل الحِجْر: المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنّه لذو حِجْر، ومنه سمّى الحَجَر لإمتناعه بصلابته، ومنه: حَجَرَ الحاكم على فلانٍ أى: منعه وضبطه عن التصرف، ولذالك سميت الحجرة حجرةً لإمتناع مافيها بها، وقال الفرّاء: العرب تقول: انه لذو حِجر: إذا كان قاهراً لنفسه، ضابطًا لها، كأنه أخذ من: حَجَرت على الرجل (القرطبى ٢٠/ ٤٣)

٦ - ألم تر: كل مافى القرآن من ألم تَرَ فمعناه: ألم تخبر، ألم تعلم، ليس من رؤية العين، كقوله تعالى (الفرقان ٢٥/ ٤٥): ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظّلّ. (إعراب ثلاثين سورة/ ٧٥)

٩ - جابوا: أى: قطعوا، ومنه: فلان يجوب البلاد أى: يقطعها، وانما سمّى جيب القميص لأنه جيبٌ أى: قطعٌ (القرطبى ٢٠/ ٤٧)

١٠ - ذى الأوتاد: أى: الجنود والعساكر والجموع والجيوش التى تشدّ ملكه، قال ابن عباس، وقيل: كان يعذب الناس بالأوتاد، ويشدهم بها إلى أن يموتوا، تجبراً منه وعتواً، وهكذا فعل بامرأته آسية وماشطة ابنته (القرطبى ٢٠/ ٤٨)

١٣ - سوطَ عذاب: أى: نصيب عذاب، ويقال شِدّته، لأن السّوط كان عندهم نهاية مايعذّب به، قال الشاعر:

ألم تر أنّ الله أظهر دينه وصبّ على الكفّار سوطَ عذاب

وقال الفرّاء: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، وأصل ذلك أن السّوط هو عذابهم الّذي يُعذّبون به، فجرى لكلّ عذاب، إذ كان فيه عندهم غاية العذاب، وقيل معناه: عذاب يخالط اللّحم والدّم، من قولهم: ساطه يَسوطه سَوطًا أي: خلطه فهو سائط. فالسّوط: خلط الشيء بعضه ببعض، ومنه سُمّيَ المِسْواط، وسَاطه أي: خَلَطه فهو سائط (القرطبي ٢٠/ ٤٩)

٢٢- **وجاء ربك**: قيل هو من مجاز الحذف، تقديره: وجاء أمر ربك، وهذا باطل من وجوه: (١) انه اضمار مالا يدل اللفظ عليه بمطابقة ولا تضمن ولالزوم. وادّعاء حذف مالا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب، ويطرق كل مبطل على إدّعاء إضمار ما يصحّح باطله. (٢) إنّ صحة التركيب واستقامة اللفظ لاتتوقف على هذا المحذوف، بل الكلام مستقيم تام قائم المعنى بدون إضمار، فإضماره مجرد خلاف الأصل فلا يجوز (٣) انه اذا لم يكن في اللفظ دليل على تعيين المحذوف، كان تعيينه قولاً على المتكلم بلا علم، وإخباراً عنه بإرادة مالم يقم به دليل على ارادته، وذلك كذب عليه (٤) أنّ في السّياق ما يبطل هذا التقدير وهو قوله: وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً، فعطف مجيء الملك على مجيئه سبحانه يدل على تغاير المجيئين، وأن مجيئه سبحانه حقيقة كما أن مجيء الملك حقيقة، بل مجيء الرب سبحانه أولى أن يكون حقيقةً من مجيء الملك. وكذلك قوله: هل ينظرونَ إلّا أن تأتيهم الملائكة او يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك (الأنعام ٦/ ١٥٨) ففرق بين اتيان الملائكة واتيان الرب واتيان بعض آيات الرب، فقسم ونوع، ومع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحداً، فتأمله، ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل مثل هذا اللفظ على مجازه وقالوا: هذا يأباه التقسيم والترديد والإطراد. (٥) أنه لو صرح بهذا المحذوف المقدر لم يحسن، وكان كلاماً ركيكاً، فادّعى صدق ما يكون النطق به مشتركاً باطلاً، فإنه لو قال: هل ينظرون إلّا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ملك ربك أو أمر ربك أو يأتي بعض آيات ربك كان مستهجناً (٦) أن

إطراد نسبة المجيء والإتيان إليه سبحانه دليل الحقيقة ، وقد صرحتم بأن من علامات الحقيقة الإطراد ، فكيف كان هذا المطرد مجازاً ؟ (٧) انه لو كان المجيء والإتيان مستحيلاً عليه لكان كالأكل والشرب والنوم والغفلة ، وهكذا هو عندكم سواء ، فمتى عهد ثم إطلاق الأكل والشرب والنوم والغفلة عليهما ونسبتها اليه نسبة مجازية وهي متعلقة بغيره ؟ وهل ذالك شيء من الكمال البتة ، فان قوله : وجاء ربك ، وأتى ، ويأتي عندكم في الإستحالة مثل : نام وأكل وشرب ، والله سبحانه لايطلق على نفسه هذه الأفعال ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، لابقرينة ولا مطلقة ، فضلاً عن تطرد نسبتها اليه ، وقد اطرد نسبة المجيء والإتيان والنزول والإستواء اليه مطلقاً من غير قرينة ، تدل على أن الذي نسب اليه ذالك غيره من مخلوقاته ، فكيف تسوغ دعوى المجاز فيه (٨) ان المجاز لوكان ثابتاً فانما يصار إليه عند تعذر الحمل على الحقيقة إذ هي الأصل ، فما الذي أحال حمل ذالك على حقيقته من عقل أو نقل أو إتفاق من إتفاقهم حجة ؟ فاما النقل والإتفاق فهو من جانب الحقيقة بلاريب ، وأما العقل فانكم تزعمون أنكم أولى به منهم ، وهم قد أبطلوا جميع عقلياتكم ، التي لأجلها إدعيتم أن نسبة المجيء والإتيان والنزول والإستواء إلى الله مجاز . (٩) أن هذا الذي ادعوا حذفه وإضماره يلزمهم فيه كما لزمهم فيما أنكروه ، فانهم إذا قدروا : وجاء أمر ربك ويأتي أمره ويجيء أمره وينزل أمره ، فأمره هو كلامه وهو حقيقة ، فكيف تجيء الصفة وتأتي وتنزل دون موصوفها ؟ وكيف ينزل الأمر ممن ليس هو فوق سماواته على عرشه ، ولما تفطن بعضهم لذالك قال : أمره بمعنى مأموره ، فالخلق والرزق بمعنى المخلوق والمرزوق ، فركب مجازاً على مجاز بزعمه ، ولم يصنع شيئاً فان مأموره هو الذي يكون ويخلق بأمره ، وليس له عندهم أمر يقوم به فلا كلام يقوم به ، وانما ذالك مجاز من مجاز الكناية عن سرعة الإنفعال بمشيئته تشبيها بمن يقول : كن ، فيكون الشيء عقيب تكوينه ، فركبوا مجازاً على مجاز ، ولم يصنعوا شيئاً ، فان

هذا المأمور الذى يأتى إن كان ملكًا فهو داخل فى قوله : أو تأتيهم الملائكة ، وإن كان شيئًا غير الملك فهو آية من آياته فيكون داخلًا فى قوله : أو يأتى بعض آيات ربك . (١٠) أنّ ما ادّعوه من الحذف والإضمار ، إمّا أن يكون فى اللفظ ما يقتضيه ويدل عليه أولا ، فإن كان الثانى لم يجز إدّعاؤه ، وإن كان الأول كان كالملفوظ به ، وعلى التقديرين فلا يكون مجازا ، فان المدلول عليه يمتنع تقديره (مختصر الصواعق المرسلة ٢/ ١٠٦-١٠٨)

٢٧- يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك :

وفى وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف : (١) أنه عند الموت ، وهو الأشهر قال الحسن : إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها ، ورضيت عن الله فيرضى الله عنها (٢) انما يقال لها ذالك عند البعث ، هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة . (٣) الكلمة الأولى ، وهى قوله : ارجعى الى ربك راضية مرضية ، تقال لها عند الموت . والكلمة الثانية وهى : فادخلى فى عبادى وادخلى جنّتى تقال لها يوم القيامة ، قاله أبو صالح ، والصوّاب : أنّ هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ويوم القيامة .

فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا ، وحينئذ فهى فى الرّفيق الأعلى ، إن كانت مطمئنة الى الله ، وفى جنته ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ، فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذالك . وحينئذ فيكون تمام الرجوع الى الله ودخول الجنة (مدارج السّالكين ٢/ ١٧٨ ، ١٧٩)

إلى ربك أى : إلى صاحبك وجسدك ، قاله ابن عباس وعكرمة وعطاء ، واختاره الطّبرى ، ودليله قراءة ابن عباس : فادخلى فى عبدى ، على التوحيد ، فيأمر الله تعالى الأرواح غدًا أن ترجع إلى الأجساد ، فادخل فى عبادى أي : فى أجساد عبادى . (القرطبى ٢٠/ ٥٨ ، ٥٩)

البَلَد

٢ - وأنت حِلٌّ بهذا البلد : فيه أقوال : (١) أنه من الإحلال وهو ضدّ الحرام . (٢) أنه من الحلول وهو ضد الظعن أى : السفر، فان أريد به المعنى الأول فهو حلال ساكن البلد ، بخلاف المحرم الذى يحج ويعتمر ويرجع ، ولأن أمنه انما تظهر به النعمة عند الحل من الإحرام ، وإلاّ ففى حال الإحرام هو فى أمان ، والحرمة هناك للفعل لا للمكان ، والمقصود هو ذكر حرمة المكان ، وهى انما تظهر بحال الحلال الذى لم يتلبس بما يقتضى أمنه ، ولكن على هذا ففيه تنبيه ، فإنه إذا أقسم به وفيه الحلال ، فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن ، وكذلك إذا أريد المعنى الثانى وهو الحلول ، فهو متضمن لهذا التعظيم مع تضمنه أمراً آخر ، وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده ، فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد ، فجعل بيته هدىً للناس ونبيه إمامًا وهاديًا لهم ، وذالك من أعظم نعمه وإحسانه الى خلقه ، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذالك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية . (٣) أن المعنى : وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين ، الذى يأمن فيه الطير والوحوش والجانى ، وقد استحل قومك فيه حرمتك ، وهم لا يعضدون به شجرة ولا ينفرون به صيداً ، وهذا مروى عن شرحبيل بن سعد ، وعلى كل حالٍ فهى جملة اعتراض فى أثناء القَسم ، موقعها من أحسن موقع وألطفه ، فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله (التبيان فى أقسام القرآن / ٥٩ ، ٦٠)

أى : وأنت مقيم بهذا البلد حالّ فيه ، وكأنه سبحانه جعل من أسباب شرف

مكة وعظمتها كونه صلى الله عليه وسلم مقيما فيه ، ولاشك أن الأمكنة تشرف بشرف ساكنيها والنازلين بها ، وأتى بهذه الجملة ليفيد أن مكة جليلة القدر في كل حالٍ حتى في الحال التي لم يراع أهلها في معاملتك تلك الحرمة التي خصها الله بها ، وفي هذا إيقاظ وتنبيه لهم من غفلتهم وتقريع على حط منزلة بلدهم (المراغي ٣٠/ ١٥٦)

٩ـ كبد : هو التعب والشر بالنصب ، هذا قول مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ، ورواية عن علي وعن ابن عباس ، قال الحسن : لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم ، وقال سعيد بن أبي الحسن : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة ، وقال قتادة : يكابد أمر الدنيا والآخرة ، فلا تلقاه إلا في مشقة (التبيان/ ٥٧)

١٠ـ وهديناه النجدين : يعني الطريقتين : طريق الخير وطريق الشر أي : بيّنا هما له بما أرسلناه من الرسل ، والنجد : الطريق في ارتفاع ، وهذا قول ابن عباس وابن مسعود وغيرهما (القرطبي ٢٠/٦٥)

١١ـ فلا اقتحم العقبة : أي : فهلا أنفق ماله الذي يزعم أنه أنفقه في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم ، هلاّ أنفقه لإقتحام العقبة فيأمن ، والإقتحام : الرمي بالنفس في شيء من غير رَوِية ، يقال منه : قحم في الأمرِ قحوماً أي : رمى بنفسه فيه (القرطبي ٢٠/ ٦٥)

واختُلِف في هذه العقبة ، هل هي في الدنيا أو في الآخرة ؟ فقالت طائفة : العقبة هاهنا مَثَل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر ، وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل ؛ قال الحسن : عقبة والله شديدة : مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان ؛ وقال مقاتل : هذا مثل ضربه الله يريد أن المعتق رقبة ، والمطعم اليتيم والمسكين يقاحم نفسه وشيطانه مثل أن يتكلّف صعود العقبة ، فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمتكلف

صعود العقبة : وهذا قول أبي عبيدة (التبيان/٦٦)

١٤ - ذي مسغبة : أي : مجاعة ، والسَّغَب : الجوع ،
والساغب : الجائع ، وقال النخعي : في يوم عزيز فيه الطعام (القرطبي ٢٠/٦٩)

١٦ - ذا متربة : أي : لا شيء له حتى كأنه قد لصق بالتراب
من الفقر ، ليس له مأوى إلا التراب ، قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق ،
الذي لا بيت له ، وقال مجاهد : هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره ،
وقال أبو حامد الخارزنجي : المتربة هنا من التتريب ، وهي شدة الحال ،
يقال : ترب : إذا افتقر ، قال الهذلي :

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا
سفكنا دماء البدن في تربة الحال

(القرطبي ٢٠/٧٠)

الشمس

١- وضحاها : أى: ضوئها و إشراقها ، وهو قسم ثان. وأضاف الضحى إلى الشمس ، لأنه انما يكون بإرتفاع الشمس ، وقال قتادة: بهاؤها ، وقال السدّى : حرّها (القرطبى ٢٠/ ٧٢)

٢- إذا تلاها : أى: والقمر إذا تلا الشمس فى الليالى البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة وقت إمتلائه أو قربه من الإمتلاء حين يضيئ الليل كله من غروب الشمس إلى الفجر ، وهذا قسم بالضوء فى طور آخر ، وهو ظهوره و انتشاره الليل كله ، وقد يكون المراد بتلاها أى: تبعها فى كلّ وقت ، لأن نوره مستمد من نور الشمس فهو لذالك يتبعها ، وقد قال بهذا الفرّاء قديمًا وأثبته علماء الفلك حديثا (المراغى ٣٠/ ١٦٦)

٩- قد أفلح من زكّاها : قال ابن قتيبة : يريد : أفلح من زكى نفسه أى: نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف (التبيان / ٤٢) وقالت طائفة : الضمير يرجع الى الله سبحانه ، قال ابن عباس فى رواية عطاء: قد أفلحت نفسٌ زكاها الله وأصلحها ، وهذا قول مجاهد وعكرمة والكلبى وسعيد بن جبير ومقاتل ، قالوا : سعدت نفسٌ و أفلحت نفسٌ أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة ، حتى عملت بها ، و خابت وخسرت نفسٌ أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها (التبيان/ ٤٣)

١٠- وقد خابَ مَن دسّاها : أى: نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصى ، والفاجر أبدًا خفى المكان ، زمن المروأة ، غامض

الشخص ، ناكس الرأس ، فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دسّ نفسه وقمعها ، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها ، وقال أبو العباس : سألت ابن الأعرابي عن قوله : وقد خابَ مَن دسّاها ؟ فقال : دسّى معناه : دسّ نفسه مع الصالحين وليس منهم ، وعلى هذا فالمعنى : أخفى نفسه فى الصّالحين ، يرى النّاس أنه منهم وهو منطوٍ على غير ما ينطوى عليه الصالحون (التبيان / ٤٣)

١٥ - ولا يخاف عقباها :

(أى : فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تبعه الذمة من أحد ، قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد ، والهاء فى عقباها ترجع إلى الفَعْلة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : من اغتسل يوم الجمعة فبها ونعمت أى : بالفعلة والخصلة . (٢) قال السدى والضحاك والكلبى : ترجع الى العاقر أى : لم يخف الذى عقرها عُقبى ما صَنَعَ ، وقاله ابن عباس أيضًا ، وفى الكلام تقديم وتأخير ، مجازه : إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها (٣) وقيل : لا يخاف رسول الله صالح عليه السّلام عاقبة إهلاك قومه ، ولا يخشى ضررًا يعود عليه من عذابهم ، لأنه قد أنذرهم ، ونجاه الله تعالى حين أهلكهم (القرطبى ٢٠ / ٧٩ ، ٨٠)

الليل

٧ - **فسنيسّره لليسرى** : ذكر للتيسير لليسرى ثلاثة
أسباب : (١) إعطاء العبد ، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم
أي : أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه ، وذلك
يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة والإخلاص والتوبة ، والشكر
وإعطاءه الإحسان والنفع بماله ولسانه وبدنه ونيته وقصده ، فتكون
لنفسه نفسا مطيعة باذلة ، لا لئيمة مانعة - (٢) والسبب الثاني : التقوى ،
وهي اجتناب ما نهى الله عنه ، وهذا من أعظم أسباب التيسير ، وضدّه
من أسباب التعسير ، فالمتقي ميسّرة عليه أمور دنياه وآخرته ، وتارك
التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه ، تعسّر عليه من أمور آخرته
بحسب ما تركه من التقوى ، وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا ،
فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم ، ولو قدر أنها لم تتيسر له
فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى ، فإن
طيب العيش ونعيم القلب ولذة الروح وفرحها وابتهاجها من أعظم
نعيم الدنيا ، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات ، وقال
تعالى : ومَن يتّق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب (الطلاق
٦٥/٢-٣) وهذا أيضًا ييسر عليه بتقواه ، وقال : ومَن يتّق الله يكفّر عنه
سيئاته ويعظم له أجرًا (الطلاق ٦٥/٥) وهذا تيسير عليه بإزالة
ما يخشاه وإعطائه ما يحب ويرضاه ، وقال : يا أيها الذين آمنوا إن تتّقوا الله
يجعل لكم فرقانًا ويكفّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم (الأنفال ٨/٢٩)

وهذا تيسير بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور، الفارق بين الحق والباطل وتكفير السّيئات ومغفرة الذنوب، وذالك غاية التيسير، وقال تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران ٣/١٣٠) والفلاح غاية اليسر كما أن الشقاء غاية العسر. (٣) السبب الثالث: التصديق بالحسنى وفسّرت بلا اله الّا الله، وفسّرت بالجنّة، وفسّرت بالخلف، وهى أقوال السّلف، واليسرى صفة الموصوف محذوف، أى: الحالة والخلّة اليسرى، وهى الفعلى من اليُسر، والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال وأفضل الجزاء، فمن فسّرها بلا إله إلّا الله فقد فسّرها بمفرد يأتى بكل جمع، فان التصديق الحقيقى بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلّها وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة (التبيان فى أقسام القرآن /٨٣ - ٨٥)

١١- **اذا تردّى**: أى: مات، يقال: رَدِىَ الرجل يَرْدَى رَدًى: إذا هلك، قال أبوصالح وزيد بن أسلم: إذا تردّى: سَقَطَ فى جهنّم، ومنه المتردّية، ويقال: رَدِىَ فى البئر وتردّى: إذا سقط فى بئرٍ أو تهوَّرَ من جبلٍ، يقال: ما أدرى أين رَدِىَ أى: أين ذهَبَ؟ و (ما) يحتمل أن تكون جحداً أى: ولا يغنى عنه ماله شيئًا، ويحتمل أن تكون إستفهامًا معناه التوبيخ أى: أىّ شيئٍ يغنى عنه إذا هلك ووقع فى جهنم (القرطبى ٣٠/ ٨٦)

١٢- **انّ علينا للهدَى**: أى: إنّا خلقنا الإنسان وألهمناه التمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، ثم بعثنا له الكَمَلَة من أفراده، وهم الأنبياء وشرعنا لهم الأحكام وبيّنّا لهم العقائد تعليمًا وإرشادًا، ثم هو بعد ذالك يختار أحد السّبيلين: سبيل الخير والفلاح، والسبيل المعوج فيتردى فى الهاوية، وقصارى ذالك: ان الإنسان

خلق نوعًا ممتازًا عن سائر الحيوان بما أوتيه من العقل، وبما وضع له من الشرائع التي تهديه إلى سبيل الرشاد (المراغي ٣٠ / ١٧٨)

١٩ - وما لأحد عنده من نعمة : وفي الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم، وإن حمل منهم شيئًا بادر إلى جزائهم عليه، لئلا يبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس للمخلوق جزاء على نعمته، ونبه بقوله: تجزى على أن نعمة الإسلام، فانها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها، وهذا يدل على أن الصديق رضي الله عنه أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها، فإن عليًّا رضي الله عنه تربى في بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم عنده نعمة غير نعمة الاسلام، يمكن أن تجزى (التبيان أقسام القرآن / ٩٩)

الضُّحى ١

١- والضحى والليل : أقسم بآيتين عظمتين من آياته، دالّتين على ربوبيته وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، فتأمل مطابقة هذا القَسَم، وهو نور الضحى الذي يوافى بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه : ودّع محمداً صلى الله عليه وسلم ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، وأيضاً فإنّ فالق ظلمة الليل من ضوء النهار هو الذى فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحى والنبوة، فهذان للحسّ وهذان للعقل، وأيضاً فإن الذى اقتضت رحمته أن لايترك عباده فى ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لايليق به أن يتركهم فى ظلمة الجهل والغى، بل يهديهم بنور الوحى والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة (أى : الفصاحة) والرونق الذى على هذه الألفاظ، والجلالة التى على معانيها (التبيان/١٠٠، ١٠١)

٣- وماقلى : أى : ماأبغض، يقال : قلاه يقليه : إذا أبغضه، ويقال : قلاه يقلاه (اعراب ثلاثين سورة/١١٧) ماأبغضك ربك منذ أحبك، والقِلَى : البغض (القرطبى ٢٠/٩٤)

٧- ووجدك ضالاًّ فهدى : (١) أى : غافلاً عمّا يُراد بك من أمر النبوة فهداك أى : أرشدك، والضلال هنا بمعنى الغفلة كقوله جل ثناؤه : لايضلّ ربى ولاينسى (طه ٢٠/٥٢) أى : لايغفل، وقال فى حقّ نبيّه : وإن

كنت من قبله لمن الغافلين (يوسف ١٢/٣) (٢) وقال قوم: ضالاً أى: لم تكن تدرى القرآن والشرائع، فهداك الله إلى القرآن وشرائع الإسلام، هذا عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما، وهو معنى قوله تعالى: ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً (الشورى ٤٢/٥٢) (٣) ضالاً أى: ناسيًا شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فأذكرك، كما قال تعالى: أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى (البقرة ٢/ ٢٨٢) (٤) وجدك محبًّا للهداية فهداك اليها، ويكون الضلال بمعنى: المحبّة، ومنه قوله تعالى: انك لفى ضلالك القديم (يوسف ١٢/ ٩٥) أى: فى محبتك القديم. (٥) قال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرةً منفردةً فى فلاة من الأرض لا شجر معها سمّوها ضالّة فيهتدى بها إلى الطريق، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ووجدك ضالًّا أى: لا أحد على دينك وأنت وحيد ليسَ معك أحد، فهديت بك الخلقَ إلىّ (القرطبى ٢٠/ ٩٦-٩٩)

٩ - فأمّا اليتيم فلا تقهر:

فى الآية دلالة على الإعتناء بشأن اليتيم (روح المعانى ٣٠/ ١٨٨) أى: لا تقهره بظلمه وأخذ ماله، وخُصّ اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله، فغلظ فى أمره لتغليظ العقوبة على ظالمه؛ وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلّم: اتّقوا ظلم مَن لا ناصر له غير الله (الجصّاص ٣/ ٤٧٣)

١٠ - وأما السّائل فلا تنهر:

أى: فلا تزجره ولكن تفضّل عليه بشئ أو ردّه بقول جميل، وأريد به عند جمع السائل المستجدى الطالب لشئ من الدنيا (روح المعانى ٣٠/١٨٩) فيه نهى عن إغلاظ القول له، لأن الإنتهار هو الزجر وإغلاظ القول، وهذا وإن كان خطابًا للنبى صلى الله عليه وسلم فانه قد أريد به جميع المكلّفين (الجصاص ٣/ ٤٧٣)

قال ابراهيم بن أدهم : نعم القوم السُّؤّال يحملون زادنا إلى الآخرة ،
وعن ابراهيم النخعي : السائل بريدة الآخرة ، يجيئ إلى باب أحدكم فيقول :
أتبعثون الى أهليكم بشيئ (القرطبى ٢٠/ ١٠١ ، روح المعانى ٣٠/ ١٨٩)

قال أبو الدرداء والحسن وسفيان وغيرهم : المراد بالسائل هنا : السائل
عن العلم والدين (روح المعانى ٣٠/ ١٨٩) والمراد بالسائل هنا : الذى يسئال
عن الدين أى : فلا تنهره بالغفلة والجفوة وأجبه برفق ولين ، قاله سفيان
(القرطبى ٢٠ / ١٠١)

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين (التبيان فى أقسام القرآن / ١٠٣)
وأمّا السائل عن الدين فجوابه فرض على العالم على الكفاية (ابن العربى ٤/ ١٩٤٧ ، القرطبى ٢٠/ ١٠١)
ثم النهى على النهر على ما قالوا إذا لم يلح فى السوال ، فان ألحّ ولم ينفع الردّ اللّين
فلا بأس بالزجر (روح ٣٠ / ١٨٩)

١١ - وأمّا بنعمة ربك فحدّث

(١) قال مجاهد : بالقرآن ،
وقال الكلبى : بمعنى أظهرها ، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ، فأمره
أن يقرئه ويعلّمه (٢) وروى أبو البشر عن مجاهد : حدّث بالنبوة التى
أعطاك الله ، وقال الزجاج : بلغ ما أرسلت به وحدّث بالنبوة التى آتاك ،
وهى أجل النعم (٣) وقال مقاتل : أشكر هذه النعمة التى ذكرت فى هذه
السورة — والتحقيق أن النعم تعمّ هذا كله ، فأمر أن لا ينهر سائل المعروف
والعلم ، وأن يحدث بنعم الله عليه فى الدين والدنيا (التبيان / ١٠٣)

مسئلة : يكبّر القارئ فى رواية البزى عن ابن كثير — وقد رواه
مجاهد عن ابن عباس ، عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم — إذا
بلغ آخر الضحى كبّر بين كلّ سورة تكبيرة إلى أن يختم القرآن ، ولا يصل
آخر السورة بتكبيرة ، بل يفصل بينهما بسكتة ، وكأنّ المعنى فى ذالك أن
الوحى تأخّر عن النبى صلى الله عليه وسلّم أيامًا ، فقاله ناس من المشركين :

قد ودعه صاحبه وقلاه ، فنزلت هذه السورة فقال : الله أكبر ، قال مجاهد :
قرأت على ابن عباس فأمرني به وأخبرني به عن أبي عن النبي صلى الله عليه
وسلم (القرطبي ٢٠ / ١٠٣)

عن حميد عن مجاهد أنه كان يكبر من خاتمة والضحى إلى خاتمة قل
أعوذ برب الناس ، وإذا ختمها قطع التكبير ، وأسند الداني أيضًا عن سفيان
ابن عيينة قال : رأيت حميدًا الأعرج يقرأ والناس حوله ، فإذا بلغ والضحى
كبر ، إذا ختم كل سورة حتى يختم (النشر في القراءات العشر ٢ / ٤١٦) .

ألم نشرح

١- ألم نشرح لك صدرك ؟ يعنى : أما شرحنا لك صدرك؟ أى : نوّرناه وجعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا، كقوله تعالى : فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام (الأنعام ١٢٥/٦) وكما شرح الله صدره كذالك جعل شرعه فسيحًا واسعًا سهلاً لاحرج فيه ولا إصر ولاضيق (ابن كثير ٤/ ٤٥٨) وشرح الصّدر : تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقّى مايوحى اليه ، قاله الجمهور ، والأولى العموم لهذا ولغيره : من مقاساة الدعاء الى الله تعالى وحده واحتمال المكاره من إذاية الكفار ، وقال ابن عباس وجماعة : إشارة إلى شق جبريل عليه السّلام صدره فى وقت صغره ، ودخلت همزة الإستفهام على النفى فأفاد التقرير على هذه النعمة وصار المعنى : قد شرحنا لك صدرك، ولذالك عطف عليه الماضى وهو : ووضعنا ، وهذا نظير قوله فى سورة الشعراء ٢٦ / ١٨ : ألم نربك فينا وليدًا وّلبثتَ (البحر المحيط ٨/ ٤٨٧)

٢- ووضعنا عنك وزرك : أى : حططنا عنك ماأثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تبلغها ، فجعلنا التبليغ عليك سهلاً ونفسك به مطمئنة راضية (المراغى ٣٠/ ١٨٩)

٤- ورفعنا لك ذكرك : أى : وجعلناك عالى الشأن، رفيع المنزلة، عظيم القدر ، وأىّ منزلة أرفع من النبوة التى منحكها الله ؟ وأىّ ذكر أنبه من أن يكون لك فى كل طرف من أطراف المعمورة أتباع يمتثلون أوامرك و يجتنبون نواهيك ويرون طاعتك مغنمًا ومعصيتك مغرمًا ، وهل من فخار بعد ذكرك فى كلمة الإيمان مع العلىّ الرّحمن ؟ وأىّ ذكر أرفع من ذكر من فرض الله

على الناس الإقرار بنبوته ، وجعل الإعتراف برسالته بعد بلوغ دعوته شرطًا في دخول جنّته ، هذا إلى أنه صلى الله عليه وسلم أنقذ أممًا كثيرة من رقّ الأوهام وفساد الأحلام ، ورجع بهم إلى الفطرة الأولى من حرية العقل والإرادة ، والإصابة في معرفة الحق ، ومعرفة من يقصد بالعبادة . فاتّحدت كلمتهم في الإعتقاد بإلهٍ واحدٍ بعد أن كانوا متفرقين طرائقَ قددًا ، عبّاد أصنام وأوثان وشموس وأقمار ، لا يجدون الى الهدى سبيلًا ، ولا للوصول الى الحق طريقًا ، فأزاح عنهم تلك الغمّة وأنار لهم طريق الهدى والرشاد (المراغي ٣٠/ ١٨٩ ، ١٩٠) قال مجاهد : يعني بالتأذين (القرطبي ٢٠ / ١٠٦) وفيه يقول حسّان بن ثابت رضي الله عنه :

أغرُّ عليه للنبوّة خاتمٌ ؛ من الله مشهودٌ يلوح ويُشهد
وضمّ الإله إسم النبي الى اسمه ؛ إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشقّ له من إسمه ليجلّه ؛ فذو العرش محمود وهذا محمّد

(ديوان حسّان/١٣٤)

٧- **فإذا فرغتَ فانصب** : (١) إذا فرغت من الصلوة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدّعاء ، قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومقاتل (ابن جرير ٣٠/١٥٢ ، التفسير الكبير ٣٠/٧ ، لباب التأويل ٧/ ٢٦٥ ، معالم التنزيل ٧/٢٦٥ ، مراح اللبيد ٢/ ٤٥٣) (٢) قال الحسن : أمره إذا فرغ من غزوه أن يجتهد في الدّعاء والعبادة (ابن جرير ٣٠/ ١٥٢) (٣) قال ابن مسعود : إذا فرغتَ من الفرائض فانصب في قيام الليل (القرطبي ٢٠/ ١٠٨ ، ١٠٩)

ومن المبتدعة مَن قرأ هذه الآية : فأَنْصِب — بكسر الصّاد والهمزة في أوله — وقالوا معناه : أنصب الإمام الذي يتخلف ، وهذا باطل في المعنى ؛ لأن النبي صلّى الله عليه وسلم لم يستخلف أحدًا (ابن العربي ٤/ ١٩٤٩ ، القرطبي ٢٠/ ١٠٩)

التّين

١- والتّين والزيتون : (١) قال كعب وعكرمة : أقسم تعالى بمنابتهما ، فان التين ينبت كثيراً بدمشق والزيتون بايليا ، فأقسم بالأرضين (البحر المحيط ٤٨٩/٨) أراد بالتين دمشق ، وبالزيتون بيت المقدس ، فأقسم الله بجبل دمشق لأنه مأوى عيسى عليه السّلام ، و بجبل بيت المقدس ، لأنه مقام الأنبياء كلهم ، و بمكة لما خلق الله فيه من الأمن ولأنه أثر إبراهيم عليه السّلام ودار محمد صلى الله عليه وسلم (ابن العربي ١٩٥١/٣) (٢) روى عن ابن عباس : التين : مسجد نوح عليه السّلام الذى بُنى على الجودى ، والزيتون : مسجد بيت المقدس (القرطبى ١١٠/٢٠) (٣) قال ابن عباس أيضًا والحسن ومجاهد وعكرمة وابراهيم النخعى وعطاء بن أبى رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبى : هو تينكم الذى تأكلون ، وزيتونكم الذى تعصرون منه الزيت ، قال الله تعالى فى سورة المؤمنون ٢٠/٢٣ : و شجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدّهن و صبغ للآكلين (القرطبى ١١٠/٢٠) انه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما ، فان التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص (أى : المضايقة) لا عجم له (أى : نوى) وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة و قوت وغذاء وأدم ، ويدخل فى الأدوية ، ومزاجه من أعدل الأمزجة ، وطبعه طبع الحياة ، ويزيد فى القوة ويوافق الباءة وينفع من البواسير والنقرس ويؤكل رطبًا و يابسًا ، وأمّا الزيتون ففيه من الآيات ماهو ظاهر لمن اعتبر ، فان عوده يخرج ثمرًا ، يعصر منه هذا الدهن ، الذى هو مادة النور وصبغ للآكلين ، وطيب ودواء ، وفيه من مصالح الخلق مالا يخفى ، وشجره باقٍ على ممر السنين المتطاولة وورقه لا يسقط ، وهذا

الذى قالوه حق، ولا ينا فى أن يكون منبته مراداً، فإنّ منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين و منبتهما، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فانه الجبل الذى كلّمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه، ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة، مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم، وترقى فى هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله، وأكرم الخلق عليه (التبيان فى أقسام القرآن / ٦٨، ٦٩)

٤ـ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم : وذلك إشارة

إلى ما خُصّ به الإنسان من بين الحيوان من العقل والفهم وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما فى هذا العالم (المفردات / ٤١٨) انه تعالى خلق كل ذى روح مكبًّا على وجهه إلّا الإنسان، فانه تعالى خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده، وقال الأصم : فى أكمل عقلٍ وفهمٍ وأدبٍ وعلمٍ وبيانٍ (التفسير الكبير ١٠/٣١)

كان عيسى بن موسى الهاشمى يحب زوجته حبًّا شديداً، فقال لها يومًا : أنت طالق ثلاثاً إن لم تكونى أحسن من القمر، فنهضت واحتجبت منه، وقالت : طلقتنى، وبات بليلة عظيمة، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور فأخبره الخبر وأظهر للمنصور جزعًا عظيمًا، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر : قد طلقت، إلّا رجلاً واحداً من أصحاب أبى حنيفة فانه كان ساكتًا، فقال له المنصور : مالك لاتتكلم؟ فقال له الرجل : بسم الله الرحمن الرحيم، والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم - يا أمير المؤمنين : فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيئ أحسن منه، فقال المنصور لعيسى بن موسى : الأمر كما قال الرجل، فأقبل على زوجك، وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل : أن أطيعى زوجك ولا تعصيه فما طلقك (ابن العربى ٤/ ١٩٥٢، القرطبى ٢٠/ ١١٤)

٥ - ثم رددناه أسفل سافلين : والمعنى : ثم جعلناه من أهل النار، الذين هم أقبح من كلّ قبيح وأسفل من كلّ سافل خلقاً وتركيباً ، لعدم جريه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات (روح المعاني ٣٠/٢٠٢)

ثم المتبادر من السياق الإشارة إلى حال الكافر يوم القيامة وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها لعدم شكره تلك النعمة وعمله بموجبها (روح المعاني ٣٠/٢٠٣)

لما كان الناس في إجابة هذه الدّعوة فريقين : منهم من أجاب ومنهم من أبى ، ذكر حال الفريقين ، فذكر حال الأكثرين وهم المردودون الى أسفل سافلين ، والصحيح أنه النار، قاله مجاهد والحسن وأبو العالية وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال : هي النار، بعضها أسفل من بعض ، وقالت طائفة ، منهم قتادة وعكرمة وعطاء والكلبي وابراهيم : انه أرذل العمر، وهو مروي عن ابن عباس ، والصواب القول الأول لوجوه : (١) إنّ أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين ، لا في لغة ولا في عُرف ، وانما أسفل سافلين هو سجين الذي هومكان الكفار والفجار كما أن عليين مكان الأبرار (٢) أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جداً ، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر (٣) ان الذين آمنوا وعملوا الصّالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر، فليس ذالك مختصًا بالكفار حتى يستثنى منهم المؤمنين (٤) ان الله سبحانه لما أراد ذالك لم يخصه بالكفار بل جعله لجنس بني آدم فقال : ومنكم من يتوفّى ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا (الحج ٢٢/٥) فجعلهم قسمين : قسمًا متوفّى قبل الكبر وقسمًا مردوداً إلى أرذل العمر، ولم يسمه أسفل سافلين .

(٥) انه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين ، وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان ، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين ، وجزاء المؤمنين أجراً غير ممنون (٦) إنّ قول من فسره بأرذل العمر يستلزم

خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم ، ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم ، وأخبر عن أمرٍ يُعرف بالحس والمشاهدة ، وفي ذلك هضم لمعنى الآية وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

(٧) انه سبحانه ذكر حال الإنسان في مبدأه ومعاده ، فمبدأه خلقه في أحسن تقويم ، ومعاده رده إلى أسفل سافلين أو إلى أجر غير ممنون ، وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده ، فما لأرذل العمر وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والإستدلال عليه ؟ (٨) ان أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس وإخراج الكلام عن ظاهره والتكلف البعيد له ، فإنهم إن قالوا : إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين ، كابروا الحس ، وإن قالوا : إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر ، إحتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء ، فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم إذا ردوا إلى أرذل العمر ، بل تجرى عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة ، فهذا — وإن كان حقا — لكن الإستثناء انما وقع من الرد لا من الأجر والعمل ، ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة" فقالوا : من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر ، وهذا ضعيف من وجهين : أحدها : أن الإستثناء عام في المؤمنين ، قارئهم وأميهم ، وأنه لا دليل على ما إدعوه ، وهذا لا يعلم بالحس ، ولا خبر يجب التسليم له يقتضيه ، والله أعلم

(٩) انه سبحانه ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم ، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له ، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين ، فإذا لم يؤمن به ، وأشرك به ، وعصى رسله ، نقله منها إلى أسفل سافلين ، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورةً من أقبح الصور في أسفل سافلين ، فتلك نعمته عليه وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته (١٠) ان نظير هذه الآية قوله تعالى : فبشرهم بعذاب أليم

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (الإنشقاق ٨٤/٢٢،٢٥)
فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين ، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك ،
والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا ، والله أعلم (التبيان في أقسام القرآن/ ٤٠-٤٣)

٧ - فلهم أجر غير ممنون : أى : غير مقطوع ولا منقوص ولا مكدر عليهم ، وهذا هو الصواب ، وقالت طائفة : غير ممنون به عليهم بل هو جزاء أعمالهم ، ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل ، وهو قول كثير من القدرية ، قال هؤلاء : إن المنة تكدر النعمة ، فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه ، وهذا القول غلطاً قطعاً ، أتى أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق ، وهذا من أبطل الباطل ، فإن المنة التي تكدر النعمة هي منة المخلوق على المخلوق ، وأما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها ، فإنها منة حقيقة ، قال تعالى : لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم (آل عمران ٣/ ١٦٤) وقال لموسى : ولقد مننا عليك مرةً أخرى (طه ٢٠ / ٣٧) وقال : ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض (القصص ٢٨/ ٥) وقال : ولقد مننا على موسى وهارون ونجّينا هما وقومهما من الكرب العظيم (الصافات ٣٧/ ١١٤، ١١٥) وقال : يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا علىّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان (الحجرات ٤٩ /١٧) وقال أهل الجنة : فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السّموم - (الطور ٥٢ / ٢٧) (التبيان في أقسام القرآن/٧٣،٧٤)



العلق

سورة العلق اول مانزل من القرآن الحكيم ، ففى صحيح البخارى (١/٢،٣) فى حديث بدء الوحى مايقتضى أن أول مانزل عليه صلى الله عليه وسلم: اقرأ باسم ربك ، ثم المدثر ، ولفظ مسلم (١/ ٨٨) اول مانزل من القرآن: اقرأ باسم ربك ، الى قوله : علّم الانسان مالم يعلم ، ووقع فى صحيح البخارى الى قوله : وربك الأكرم ، وهو مختصر ، وفى الأول زيادة ، وهى من الثقة مقبولة (البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١/ ٢٠٦)

وقد جاء مايعارض هذا ، ففى صحيح مسلم (١/ ٩٠) بسنده عن يحى عن جابر رضى الله عنه : أول مانزل من القرآن سورة المدثر ، فجمع بعضهم بينهما بأن جابراً رضى الله عنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يذكر قصة بدء الوحى فسمع آخرها ولم يسمع أوّلها ، فتوهّم أنها أوّل مانزلت ، وليس كذالك ، نعم هى اول مانزل بعد سورة اقرأ و فترة الوحى ، لماثبت فى صحيح البخارى (٢/ ٧٤٠) وصحيح مسلم (١/ ٩٠) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن جابر رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدّث عن فترة الوحى ، قال فى حديثه : بينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السّماء فرفعت رأسى ، فاذا الملك الذى جاء نى بحراء جالسٌ على الكرسى بين السّماء والأرض ففرقت منه فرجعت فقلت : زمّلونى زمّلونى ، فأنزل الله تعالى : يايها المدثر قم فأنذر (البرهان فى علوم القرآن ١/ ٢٠٦ ، ٢٠٧ ؛ أسباب النزول للواحدى/ ٧ ، ٨)

وقيل : اول مانزل سورة الفاتحة ، روى ذالك البيهقى بسنده قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوتا انطلق هاربًا، و ذكر قوله ونزول الملك عليه : بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العلمين، إلى آخرها (دلائل النبوة ٢/ ١٥٨)

و لذا قال الرازى : أن أول ما نزل من القرآن : الحمد لله رب العلمين (التفسير الكبير ١/١٧٧) وقال آخرون : الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم (التفسير الكبير ٣٢/١٣، الكشاف ٤/ ٧٧٥)

قال الحافظ ابن كثير : هذا لفظ البيهقى، وهو مرسل وفيه غرابة، و هو كون الفاتحة أوّل ما نزل (البداية والنهاية ٣/ ١٠) وقال القاضى أبوبكر فى الانتصار : وهذا الخبر منقطع، وأثبت الأقاويل : اقرأ باسم ربك، و أوّل ما نزل من أوامر التبليغ : يا أيها المدثر، وأول ما نزل من السوّر: سورة الفاتحة، وهذا كما ورد فى الحديث : إنّ أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته (رواه الترمذى فى جامعه ١/ ٩٤) وأن أوّل ما يحكم بين العباد فى الدّماء (الجامع للترمذى ١/ ٢٥٩) وجمع بينهما بأن أول ما يحكم فيه من المظالم التى بين العباد : الدّماء، وأول ما يحاسب به العبد من الفرائض البدنية : الصلوة۔ (البرهان ١/ ٢٠٧، ٢٠٨)

٣ - اقرأ : كرّر الأمر، لأن القراءة لاتكسبها النفس إلّا بالتكرار والتعود، على ما جرت به العادة، وتكرار الأمر الإلهى يقوم مقام تكرار المقروء، وبذالك تصير القراءة ملكة للنبى صلى الله عليه وسلم، تدبر قوله تعالى فى سورة الأعلى ٨٧/٦ : سنقرئك فلا تنسىٰ (المراغى ٣٠/ ١٩٩)

٤ - علّم بالقلم : الأقلام فى الأصل ثلاثة : (١) القلم الأول، كما ثبت فى الحديث : أول ما خلق الله القلم، فقال له : اكتب، فكتب ما كان وما يكون الى يوم الساعة، فهو عنده فى الذكر فوق عرشه (٢) القلم الثانى، ما جعل الله بأيدى الملئكة يكتبون به المقادير والكوائن والأعمال، وذالك قوله تعالى: كراما كاتبين

يعلمون ما تفعلون (الانفطار ٨٢/ ١٢-١١) خلق الله لهم الأقلام وعلمهم الكتاب بها.

(٣) القلم الثالث : أقلام الناس، جعلها الله تعالى بأيديهم يكتبون بها كلامهم، ويصلون إلى مآربهم، والله أخرج الخلق من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وخلق لهم السمع والبصر والنطق، ثم رزقهم معرفة العبادة باللسان على ثمانية وعشرين وجهاً، وقيل: حرفاً يضطرب بها اللسان بين الحنك والأسنان، فيتقطع الصوت تقطيعاً يثبت عنه مقطعاته على نظام متسق قرنت به معارف في أفرادها وفي تأليفها، وألقى إلى العبد معرفة أدائها، فذلك قوله في سورة النساء ٤/١١٣: وعلمك ما لم تكن تعلم (ابن العربي ٤/ ١٩٥٦)

١٥- لنسفعاً بالناصية : لنسفعاً أي: لنأخذن بالناصية فلنذلنه، وقيل: لنأخذن بناصيته يوم القيامة وتطوى مع قدميه ويطرح في النار، كما قال تعالى: فيؤخذ بالنواصي والأقدام (الرحمن ٥٥/ ٤١) فالآية — وإن كانت في أبي جهل — فهي عظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة، وأهل اللغة يقولون : سَفَعْتَ بالشيء: إذا قبضت عليه وجذبته جذباً شديداً، والناصية : شعر مقدم الرأس، وقد يعبر بها عن جملة الإنسان، كما يقال: هذه ناصية مباركة، إشارة إلى جميع الإنسان، وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته، وقال المبرد: السفع: الجذب بشدة أي: لنجرنّ بناصيته إلى النار، وقيل: السفع: الضرب أي: لنلطمن وجهه، وكله متقارب المعنى (القرطبي ٢٠/ ١٢٥)

١٧- فليدع نادية : أي: فليجمع أمثاله ممن ينتدى معهم ليمنع المصلين المخلصين، ويؤذي أهل الحق الصادقين، فإنه إن فعل ذلك تعرض لسخط ربه والتنكيل به وسندعو له من جنودنا كل قوي متين لا قبل بمغالبته فيهلكه في الدنيا، أو يرديه في النار في الآخرة، والمراد بهم الملائكة، الذين أقامهم الله على تعذيب العصاة من خلقه، وسموا زبانية، لأنهم يزبنون الكفار في النار أي يدفعونهم ويسوقونهم إليها (المراغي ٣٠/ ٢٠٤، ٢٠٥)

القَدْر

١- ليلة القدر : قيل : ليلة الشرف والفضل ، وقيل : ليلة التدبير والتقدير ، وهو أقرب لقوله : فيها يُفرق كل أمر حكيم (الدخان ٤٤/٤) ويدخل فيه الشرف والرفعة ، ومعنى التقدير والتدبير فيها أن الله قد دبّر الحوادث والكوائن قبل خلقها بغير مدّة ، وقدّر المقادير قبل خلق السماوات والأرض من غير تحديد ، وعلم الأشياء قبل حدوثها بغير أمدٍ ، ومن جهالة المفتونين أنهم قالوا : إنّ السّفرة ألقته الى جبريل فى عشرين ليلة وألقاه جبريل الى محمد صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة ، وهذا باطل ليس بين جبريل وبين الله واسطة ، ولا بين جبريل ومحمد صلى الله عليهما واسطة ، قال علماؤنا : فيحْدِث الله عزوجل فى رمضان فى ليلة القدر كلّ شيءٍ يكون فى السَّنَة من الأرزاق والمصائب ، وما يقسم من السعادة والشقاوة ، والحياة والموت ، والمطر والرزق ، حتى يكتب فلان يحجّ فى العام ، ويكتب ذالك فى أم الكتاب (ابن العربى ٤/ ١٩٩١ ، ١٩٩٢)

٢- من كل أمر : أُمِرَ بكلّ أمرٍ قدّره الله وقضاه فى تلك السَّنَة الى قابل قاله ابن عباس ، كقوله تعالى : يحفظونه من أمر الله (النحل ١٦/ ٢) أى : بأمر الله (القرطبى ٢٠/ ١٣٣)

البَيّنَة

١ـ **منفكّين** : (١) قال مجاهد وغيره : لم يكونوا منفكّين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة .ـ(٢) قال الفراء وغيره : لم يكونوا منفكين عن معرفة صحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم والتوكف لأمره حتى جاءتهم البينة فتفرقوا عند ذالك .ـ (٣) قال ابن عطية : ويتجه فى معنى الآية قول ثالث بارع المعنى ، وذالك أنه يكون المراد : لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم حتى يبعث الله تعالى اليهم رسولاً منذرًا ، تقوم عليهم به الحجّة ، ويتم على من آمن النعمة ، فكانه قال : ما كانوا ليتركوا سدًى ، ولهذا نظائر فى كتاب الله تعالى (٤) قيل : لم يكونوا منفكين عن حياتهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة ، والظاهر أن المعنى لم يكونوا منفكين أى : منفصلًا بعضهم من بعض ، بل كان كل منهم مقرًا الآخر ، على ماهو عليه ممّا اختاره لنفسه ، هذا من اعتقاده فى شريعته ، وهذا من اعتقاده فى أصنامه ، والمعنى : انه اتصلت موّدتهم واجتمعت كلمتهم إلى أن أتتهم البيّنة .ـ(٥) وقيل معنى منفكين : هالكين، من قولهم، انفك صلا المرأة عند الولادة ، وأن ينفصل فلا يلتئم ، والمعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلّا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وانزال الكتب (البحر المحيط ٨/٤٩٨) .ـ(٦) قال ابن كيسان : أى : لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابهم حتى بُعث ، فلما بُعث حسدوه وجحدوه ، وهو كقوله : فلمّا جاءهم ماعرفوا كفروا به (البقرة ٢/٨٩) ولهذا قال : وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب ... الآية ، وعلى هذا فقوله :

والمشركين أى : ما كانوا يسيئون القول فى محمد صلى الله عليه وسلم حتى بُعِث ، فانهم كانوا يسمونه : الأمين ، حتى أتتهم البينة على لسانه وبُعث اليهم فحينئذ عادوه (القرطبى ٢٠/ ١٤١)

١- حتى تأتيهم البيّنة : قيل : حتى أتتهم ، والبينة : محمد صلى الله عليه وسلم (القرطبى ٢٠/ ١٤٢)

٣- فيها كتب قيّمة : أى : مستقيمة مستوية محكمة ، من قول العرب : قام يقوم : إذا استوى وصحّ ، وقال بعض أهل العلم : الصحف هى الكتب ، فكيف قال فى صحف : فيها كتب ؟ فالجواب : أن الكتاب هنا بمعنى : الأحكام ، قال الله تعالى : كتب الله لأغلبنّ (المجادلة ٥٨/٢١) بمعنى حَكَمَ ، وقال صلى الله عليه وسلم : والله لأقضينّ بينكما بكتاب الله ، ثم قضى بالرجم ، وليس ذكر الرجم مسطورًا فى الكتاب ، فالمعنى : لأقضين بينكما بحكم الله تعالى (القرطبى ٢٠/ ١٤٣)

٥- وذلك دين القيّمة :(١) أى : ذلك الدين الذى أُمِروا به دين القيّمة أى : الدين المستقيم . (٢) وقال الزجاج : أى : ذلك دين الملّة المستقيمة ، والقيّمة نعت لموصوف محذوف ، أو يقال : دين الأمة القيّمة بالحق (القرطبى ٢٠/ ١٤٤)

٧- اولئك هم خير البرية : روى أبو نُعيم بإسناده إلى ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ رضى الله عنه : هم أنتَ وشيعتك ، يأتون يوم القيامة راضين ، ويأتى خصماؤك غضابًا مقمحين ، وإذا كان خير البرية وجب أن يكون الامام .

والجواب : المطالبة بصحته وإن كنا جازمين بوضعه ، ثم هو معارض بمن قال : إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الخوارج والنواصب ، ويقولون : مَن تولّى عليًّا رضى الله عنه فهو كافر ، ويحتجون على ذلك بقوله :

ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فيكون كافراً ، وقال : ومن يتولّهم منكم فانه منهم (المائدة ٥/ ٥١) وقال : هو وعثمان و شيعتهما مرتدّون بقول النبى صلى الله عليه وسلم : ليُذادنّ رجال عن حوضى كما تذاد الإبل الغريبة ، فأقول : ربّ أصحابي أصحابي فيقال : انك لاتدرى ما أحدثوا بعدك ، و بقوله : لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فهذا و إن كان باطلاً ، فحجج الرافضة أبطل منه ، و قد صنف الجاحظ كتابا للمروانية وذكر حججاً لهم لايمكن الرافضىّ نقضها ، بل يحتاج الى أهل السنة حتى ينقضوها-

(المنتقى من منهاج الاعتدال/ ٤٨٠)

الزلزال

٢- وأخرجت الأرض أثقالها : قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت فى بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها وقال ابن عباس و مجاهد : أثقالها : موتاها ، تخرجهم فى النفخة الثانية ، ومنه قيل للجن والإنس : الثقلان ؛ وقيل أثقالها : كنوزها (القرطبي ٢٠/١٤٧)

٣- وقال الانسان مالها ؟ وذالك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ موتاها أحياء ، فيقولون ذالك لما يبهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون : من بعثنا من مرقدنا (يس ٣٦/٥٢) وقيل هذا قول الكافر ، لأنه كان لايؤمن بالبعث فأما المؤمن فيقول (يس٣٦/٥٢) : هذاما وعد الرحمن وصدق المرسلون (النسفى ٥/٣٨٨) قال الجمهور : الإنسان هو الكافر ، يرى مالا يظن (البحر المحيط ٨/٥٠٠)

٦- يصدر الناس أشتاتاً : أى : فرقًا ، جمع شتٍّ ، قيل : عن موقف الحساب ، فريق يأخذ جهة اليمين الى الجنّة ، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار ، كما قال تعالى : يومئذ يتفرّقون (الروم ٣٠/١٤) يومئذ يصّدّعون (الروم ٣٠/٤٣) وقيل : يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب أشتاتاً يعنى : فِرَقاً فِرَقاً ليروا أعمالهم يعنى ثواب أعمالهم (القرطبى ٢٠/١٤٩)

ويحتمل أن يكون أشتاتاً أى : كل واحدٍ وحده لا ناصر له ولا عاضد كقوله تعالى فى سورة الأنعام ٦/٩٤ : ولقد جئتمونا فرادى (البحر المحيط ٨/٥٠١)

العٰدِيٰتُ

١ـ **والعاديات** : قد اختلف الصحابة ومَن بعدهم فى ذالك (١) قال على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما : هى إبل الحاجّ تعدو من عرفة إلى مزدلفة ، ومن مزدلفة إلى مِنى ، وهذا إختيار محمد بن كعب وأبى صالح وجماعة من المفسرين (٢) قال عبد الله بن عباس : هى خيل الغزاة ، وهذا قول أصحاب ابن عباس والحسن وجماعة واختاره الفراء والزجاج.

قال أصحاب الإبل : السورة مكية ، ولم يكن ثمّ جهاد ولا خيل تجاهد ، وانّما أقسم بما يعرفونه ويألفونه ، وهى إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلى مزدلفة ، فهى عاديات ، والضبح والضبع : مدّ الناقة ضبعها فى السّير ، يقال : ضبحت وضبعت بمعنى واحد ، وأنشد أبو عبيدة وقد إختارهذا القول :

فكان لكم أجرى جميعًا وأضبحت

بى المنازل الوجناء فى الآل تضبح

البازل الوجناء : الناقة الشديدة القوية.

قال أصحاب الخيل : المعروف فى اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدونَ ، والمعنى : والعاديات ضابحة ، فيكون ضبحاً مصدراً على الأول ، و حالاً على الثانى ، قالوا : والخيل هى التى تضبح فى عدوها ضبحاً ، وهو صوت يسمع من أجوافها ، ليس بالصهيل ولا الحمحمة (هما من أصوات الخيل) ولكن صوت أنفسها فى أجوافها من شدة العدو ، وقال الجرجانى : كلا القولين قد جاء فى التفسير إلّا أنّ السّياق يدل على أنها الخيل ، وهو قوله تعالى : فالموريات قدحًا ، والإيراء لايكون إلّا للحافر ، لصلابته ، وأمّا الخف ففيه لين واسترخاء ،

قالوا : والضبح فى الخيل أظهر منه فى الإبل، والايراء لسنابك الخيل أبين منه لأخفاف الإبل ، والضمير فى (به) عائد على المكان الذى تعدو فيه ، قالوا : واعظم ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو ، لكثرة حركتها واضطرابها فى ذالك المكان . وأمّا حمل الآية فى إثارة الغبار فى وادى محسِّر عند الإفاضة فليس بالبيّن ، ولا يثور هناك غبار فى الغالب لصلابة المكان ، قالوا : وأما قولكم : انه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد، فهذا لا يلزم لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت فى غزو فأغارت فأثارت النقع ، وتوسطت جمع العدو، وهذا أمر معروف ، وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل فى هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الإختصاص . (التبيان فى أقسام القرآن/١٠٤-١٠٦)

قال الرافضى : وفى غزوة السّلسلة جاء أعرابى فأخبر النبى صلى الله عليه وسلّم أن جماعة قصدوا أن يكبسوا عليه المدينة ، فقال : مَن للوادى ؟ فقال أبوبكر : أنا، فدفع اليه اللّواء وضمّ اليه سبعمائة ، فلما وصل اليهم قالوا : ارجع إلى صاحبك فانا فى جمع كثير ، فرجع ، فقال عليه الصلاة والسّلام : من للوادى ؟ فقال عمر : أنا، فبعثه ففعل كالأول ، فقال فى اليوم الثالث : أين علىّ ؟ فدفع اليه الرأية فمضى فلقيهم فقتل منهم ستة أو سبعة وانهزم الباقون، وأقسم الله على فعل أمير المؤمنين فقال : والعاديات ضبحًا. **قلنا** : هذا من الباطل ، فلا وجود لهذه الغزوة أصلاً ، بل هى من جنس غزوات الطرقية، الذين يحكون الأكاذيب المكثيرة ، كسيرة عنترة والبطال ، وقد إعتنى بأيام الرسول صلى الله عليه وسلم عروة والزهرى وابن اسحاق وموسى بن عقبة وأبو معشر السِّندى والليث بن سعدٍ وأبو اسحاق الفزارى والوليد بن مسلم والواقدى ويونس بن بكير وابن عائذ وأمثالهم، وما البفوادِ قّاً ولاجِلاً ولاغثّاً ولاسميناً ، وما ذكروا هذه الغزوة ، ولا نزلت فيها والعاديات ، بل نزلت بالإجماع بمكة ،

بل المشهور عن علىّ فى التفاسير أنه قال : العاديات إبل الحجّاج وعَدْوها من مزدلفة إلى مِنى ، وكان ابن عباس والأكثرون يفسرونها بالخيل اللتى تغزو فى سبيل الله . (المنتقى من منهاج الاعتدال/ ٥٤٤، ٥٤٥)

٦- لكنود : هذا جواب القسم أى : طبع الإنسان على كفران النعمة ، قال ابن عباس : لكنود : لكفور جحود لنعم الله ، وكذالك قال الحسن ، وقال : يذكر المصائب وينسى النعم ، أخذه الشاعر فنظمه :

يا أيها الظالم فى فعله | والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتّى متى | تشكو المصيبات وتنسى النِّعم

وروى أبو امامة الباهلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكنود هو الذى يأكل وحده ، ويمنع رفده (أى : العطاء والصلة) ويضرب عبده . (القرطبى ٢٠/ ١٦٠)

القارعة

١- القارعة : من أسماء القيامة كالحاقة والصاخة والطامة والغاشية، وسميت بذلك لأنها تقرع القلوب بهولها كما تسمى الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة ، قال تعالى : ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة (الرعد ١٣/٣١)، أى : حادثة عظيمة تقرعهم وتصك أجسادهم فيألمون لها (المراغى ٣٠/٢٢٥)

٤- يوم يكون الناس : (يومَ) منصوب على الظرف، تقديره : تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، قال قتادة : الفراش : الطير الذى يتساقط فى النار والسراج ، الواحدة فراشة ، والمبثوث : المتفرق ، وقال فى موضع آخر : كأنهم جراد منتشر (القمر ٥٤/٧) فأول حالهم كالفراش لا وجهَ له ، يتحيّر فى كل وجه ، ثم يكونون كالجراد ، لأن لها وجهاً تقصده - والمبثوث : المتفرق المنتشر (القرطبى ٢٠/ ١٦٥)

٥- كالعهن المنفوش : أى : الصوف الذى يُنفش باليد، أى : تصير هباءً وتزول، كما قال جل ثناؤه فى موضع آخر : هباء منبثا (الواقعه ٥٦/ ٦) و أهل اللغة يقولون : العهن : الصوف المصبوغ (القرطبى ٢٠/ ١٦٥)

٩- فأمه هاوية : يعنى جهنّم وسمّاها أمًّا لأنه يأوى اليها كما يأوى إلى أمه ، قاله ابن زيد ، ومنه قول أميّه بن أبى الصّلت :

فالأرض مَعْقِلنا وكانت أُمَّنا فيها مقابرُنا وفيها نولد

وسميت النار هاوية ، لأنه يهوى فيها مع بُعدِ قعرها (القرطبى ٢٠/ ١٦٧)

التكاثر

١- الهاكم التكاثر : أى : شغلكم التفاخر والتباهى بكثرة الأنصار والأشياع ، وصرفكم ذالك عن الجد فى العمل ، فكنتم فى لهوٍ بالقول عن الفعل ، وفى غرورٍ وإعجابٍ بالآباء والأعوان ، وصرفكم ذالك عن توجيه قواكم الى العمل بما فرض عليكم من الأعمال لأنفسكم وأهليكم ، وما زال ذالك ديدنكم ودأبكم الذى سرتم عليه . وفى صحيح مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : الهاكم التكاثر ، قال : يقول ابن آدم : مالى ، مالى ، وهل لك يا ابن آدم من مالك الّا ما أكلت فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليت ، أو تصدّقت فأمضيتَ ، وفى رواية أبى هريرة : وما سوى ذالك فذاهبٌ وتاركه للناس (المراغى ٣٠/ ٢٢٩)

٢- حتى زرتم المقابر : (١) أى : حتى أتاكم الموت ، فصرتم فى المقابر زُوّارًا ، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار ، يقال لمن مات : قد زار قبره . (٢) ألهاكم التكاثر حتى عودتم الأموات . (٣) هذا وعيد أى : اشتغلتم بمفاخرة الدنيا ، حتى تزوروا القبور (القرطبى ٢٠/ ١٦٩)

لم يأت فى التنزيل ذكر المقابر إلّا فى هذه السّورة ، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسى ، لأنها تذكر الموت والآخرة ، وذالك يحمل على قصر الأمل والزهد فى الدنيا وترك الرغبة فيها ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور ، فانها تزهد فى الدنيا وتذكّر الآخرة ، رواه ابن مسعود ، أخرجه ابن ماجة ، وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : فانها تذكّر الموت ، وفى الترمذى عن بُرَيْدة : فانها تذكرة الآخرة ، قال : هذا حديث

حسن صحيح (القرطبي ٢٠/ ١٧٠)

لا كلام في ذم زيارة القبور للتفاخر بالمزور أو للتباهي بالزيارة، كما يفعل كثير من الجهلة المنتسبين إلى المتصوفة في زياراتهم لقبور المشايخ عليهم الرحمة، هذا مع ما لهم فيها من منكرات اعتقدوها طاعات، وشنائع اتخذوها شرائع إلى أمور تضيق عنها صدور السطور (روح المعاني ٣٠/ ٢٥٩)

فزوروها أمر إباحة للإتعاظ بها، لا لمعنى المباهاة والتفاخر، قال ابن عطية: كما يصنع الناس في ملازمتها وتسنيمها بالحجارة والرخام، وتلوينها شرفاً، وبيان النواويس عليها. وابن عطية لم ير إلا قبور أهل الأندلس، فكيف لو رأى ما تباهى به أهل مصر في مدافنهم بالقرافة الكبرى والقرافة الصغرى وباب النصر وغير ذلك، وما يضيع فيها من الأموال، لتعجب من ذلك، ولرأى ما لم يخطر ببال، وأما التباهي بالزيارة ففي هؤلاء المنتمين إلى الصوف أقوام ليس لهم شغل إلا زيارة القبور: زرت قبر سيدي فلان بكذا، وقبر فلان بكذا، والشيخ فلانا بكذا، فيذكرون أقاليم طافوها على قدم التجريد، وقد حفظوا حكايات عن أصحاب تلك القبور وأولئك المشايخ بحيث لو كتبت لجاءت أسفاراً، وهم مع ذلك لا يعرفون فروض الوضوء ولا سننه، وقد سخر لهم الملوك وعوام الناس في تحسين الظن بهم، وبذل أموالهم لهم، وأما من شذا منهم لأن يتكلم للعامة فيأتي بعجائب يقولون: هذا فتح، هذا من العلم اللدني علم الخضر، حتى أن من ينتمي إلى العلم لما رأى رواج هذه الطائفة سلك مسلكهم ونقل كثيرا من حكاياتهم، ومزج ذلك بيسير من العلم طلبا للمال والجاه وتقبيل اليد، ونحن نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته.

(البحر المحيط ٨/ ٥٠٧، ٥٠٨)

٨ - **النعيم**: اختلف أهل التأويل في النعيم المسؤول عنه على أقوال: (١) الأمن والصحة، قاله ابن مسعود (٢) الصحة والفراغ، قاله

سعيد بن جبير ، وفى البخارى عنه صلى الله عليه وسلم : نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ . (٣) الإدراك بحواس السمع والبصر ، قاله ابن عباس ، وفى التنزيل : ان السّمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا (الاسراء ١٧/ ٣٦) وفى الصحيح عن أبى هريرة وأبى سعيد قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له : ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالاً وولدًا ...... الحديث ، خرّجه الترمذى وقال فيه : حديث حسن صحيح (٤) ملاذ المأكول والمشروب ، قاله جابر بن عبد الله الأنصارى (٥) أنه الغداء والعشاء ، قاله الحسن (٦) أنه شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم ، قاله مكحول الشامى (٧) انه صحة البدن ، وطيب النفس ، قاله مالك (القرطبى ٢٠/ ١٧٩ ، ١٧٤)

العَصْر

هى على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت، فقد روى عن الشافعى عليه الرحمة أنه قال: لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس، لأنها شملت جميع علوم القرآن (روح المعانى ٣٠ / ٢٦٣)

١- والعصر: المقسم به، قيل: هو أول الوقت الذى يلى المغرب من النهار، وقيل: هو آخر من آخر ساعاته، وقيل المراد: صلوة العصر، وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح، وتسمية الدهر عصرًا أمر معروف فى لغتهم، قال:

ولن يلبثَ العصرانِ: يومٌ وليلةٌ
إذا طلبا أن يُدرِكا ما تيمَّما

ويوم وليلة بدل من العصران. (التبيان فى أقسام القرآن / ١١٤)



١ـ همزة لمزة (١) قال ابن عباس: هم المشاءون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العيب ، فعلى هذا هما بمعنى.
(٢) وعن ابن عباس أيضاً: أن الهمزة: القتات ، واللمزة: العياب.
(٣) وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح: الهمزة: الذى يغتاب ويطعن فى وجه الرجل ، واللمزة: الذى يغتاب من خلفه إذا غاب ، واختار هذا القول النحاس ، قال: ومنه قوله تعالى فى سورة التوبة ٥٨/٩: ومنهم من يلمزك فى الصدقات (القرطبى ٢٠/ ١٨١ ، ١٨٢)



١ ـ **ألم تر** : أى : ألم تخبر ، وقيل : ألم تعلم . وقال ابن عباس : ألم تسمع ؟ واللفظ استفهام ، والمعنى تقرير ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولكنه عام أى : ألم تروا ما فعلتُ بأصحاب الفيل أى : قد رأيتم ذالك وعرفتم موضع منّتى عليكم فما لكم لا تؤمنون ؟ (القرطبى ٢٠/١٨٧)

وإنما عبر عن العلم بالرؤية ، للإيماء إلى أن الخبر بهذا القصص متواتر مستفيض ، فالعلم به مساوٍ فى قوّة الثبوت مع الوضوح ـ للعلم الناشئ عن الرؤية والمشاهدة (المراغى ٣٠/ ٢٤٣)

٣ ـ **طيرًا أبابيل** : قال سعيد بن جبير : كانت طيرًا من السّماء لم يُر قبلها ولا بعدها مثلها (القرطبى ٢٠/ ١٩٦) واختلف فى واحد أبابيل ، فقال الجوهرى : قال الأخفش : يقال : جاءت إبلك أبابيل أى : فِرَقًا ، وطيرًا أبابيل قال : وهذا يجيئ فى معنى التكثير ، وهو من الجمع الذى لا واحد له ، وقال بعضهم : واحده إبَّوْل مثل عِجَّوْل ، وقال بعضهم ـ وهو المبرّد ـ : إبِّيل مثل سِكِّين ، قال : ولم أجد العرب تعرف له واحدًا فى غير الصّحاح ، وقيل فى واحده إبّال (القرطبى ٢٠/١٩٧)

قريش

١- لايلاف قريش : بما يتعلق اللام ؟ فيه وجوه : (١) انها تتعلق بما قبلها - (٢) متعلقة بما بعدها - (٣) لا تتعلق بشيءٍ ، فهى لام التعجب كما فى قولهم : لزيد وما صنعنا به أى : اعجبوا من شان زيد ، ومعنى الآية : اعجبوا لايلاف قريش ، وهذا قول الأخفش والكسائى . على الاول هى تتعلق بجَعَلَ ، والتقدير : جعلهم كعصف مأكول لايلاف قريش لبقاءهم ورحلتهم فى الأسفار ، وهو قول الزجاج وأبى عبيدة ، او متعلقة بفعل : أى : فعل ربك بأصحاب الفيل لايلاف قريش أى : كل ما فعلنا باصحاب الفيل فقد فعلناه بخاطر القريش ، او هى بمعنى إلى لا يتعلق بفَعَلَ ، كانه قال : فعلنا كلّ ما فعلنا فى السورة السابقة الى نعمة أخرى عليهم وهى ايلافهم رحلة الشتاء والصّيف ، تقول : نعمة الى نعمة ، هذا قول الفراء - وعلى القول الثانى هى تتعلق بقوله : فليعبدوا ، وهو قول الخليل وسيبويه ، والتقدير : فليعبدوا رب هذا البيت لايلاف قريش أى : ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة ودخول فاء فى فليعبدوا لا يمنع ذالك -

وفى الإيلاف ثلاثة أوجه : (١) الإيلاف بمعنى : الالف ، يقال : الفت الشيءَ وألفته الفاً ، الافاً ، ايلافاً بمعنى واحد (٢) يكون بمعنى اثبات الألفة بالتدبير الذى فيه لطفٌ والمعنى : ان هذه الالفة فى قريش انما حصلت بتدبير الله وهو أنه أهلك أصحاب الفيل ، فحصل المسرّة وعند المسرّة يقع الاتفاق والموانسة ، فالمصدر مضاف الى المفعول (٣) يكون الايلاف بمعنى التهنية والتجهيز ، وهو قول الفراء وابن العربى والمعنى : لتجهيز قريش رحلتها ، فالمصدر مضاف الى الفاعل . (فتح المنان ٤/ ٤٠٢)

الماعون

٣- **ولا يحض** : أى : لا يأمر به من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء ، وهو مثل قوله تعالى فى سورة الحاقة ٦٩/١٣ : ولا يحض على طعام المسكين (القرطبى ٢٠/٢١١

٥- **الذين هم عن صلاتهم ساهون** : روى الضحاك عن ابن عباس قال : هو المصلّى الذى إن صلّى لم يَرْجُ لها ثواباً وإن تركها لم يخشَ عليها عقاباً ، وعنه أيضاً : الذين يؤخرونها عن أوقاتها ، وكذا روى المغيرة عن ابراهيم قال : ساهونَ بإضاعة الوقت ، وعن أبى العالية : لا يصلونها لمواقيتها ولا يُتمّونَ ركوعها ولا سجودها ، قلت ويدل على هذا قوله تعالى فى سورة مريم ١٩/٥٩ : فخلف من بعدهم خلْفٌ أضاعوا الصّلاة (القرطبى ٢٠/٢١١)

٧- **الماعون** : فيه أقوال : (١) أنه زكاة أموالهم ، كذا روى الضحاك عن ابن عباس ، وروى عن علىّ مثل ذالك (٢) أن الماعون : المال بلسان قريش ، قاله ابن شهاب وسعيد بن المسيّب (٣) انه اسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقِدر والنار وما أشبه ذالك ، قاله ابن مسعود ، وروى عن ابن عباس أيضًا (٤) ذكر الزجاج والمبرد وابو عبيد : أن الماعون فى الجاهليّة كلّ ما فيه منفعة ، قالوا : والماعون فى الاسلام : الطاعة والزكاة (٥) أنه العارية ، عن ابن عباس أيضا (٦) أنه المعروف كله الذى يتعاطاه الناس فيما بينهم ، قاله محمد بن كعب والكلبى (٧) انه منع الحق ، قاله عبد الله بن عمر (٨) أنه المستغل من منافع الأموال ، مأخوذ من المَعْن وهو القليل ، حكاه الطبرى وابن عباس (القرطبى ٢٠/٢١٤)



إنها كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة قد وصف الله تعالى فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلوة، والرياء فيها، ومنع الزكوة، فذكرهنا في مقابلة البخل: إنا أعطيناك الكوثر أي: الكثير، وفي مقابلة ترك الصلوة: فصل، أي دُم عليها، وفي مقابلة الرياء: لربك أي: لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون: وانحر، وأراد به: التصدق بلحم الأضاحي (التفسير الكبير ٣١/١١٧؛ البرهان ١/٣٩؛ روح المعاني ٣٠/٢٨٢)

١ - الكوثر: (١) انه نهر في الجنة، رواه البخاري عن أنس والترمذي، ورواه الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، مجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج. (٢) انه حوض النبي صلى الله عليه وسلم، قال عطاء، وفي صحيح مسلم عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسما فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت علي آنفا سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، انا اعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الأبتر، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: إنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: إنه من أمتي، فيقال: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك (القرطبي ٣٠/٢١٦)

وفي الحديث الطويل عن أبي هريرة مرفوعا: ألا ليذادن رجال عن

حوضي كما يذاد البعير الضال، وأناديهم: ألا هلمّ فيقال: انهم قد أحدثوا بعدك، وأقول: سحقا سحقا (ابن خزيمة ١/٧)

٢- **فصلّ لربك وانحر**: فصل لربك: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ إعطائه تعالى إياه عليه السّلام ما ذكر من العطية التي لم يعطها أحداً من العالمين مستوجب المأمور به أيّ استيجاب أي: ندم على الصلوة لربك الذي أفاض عليك هذه النعمة الجليلة التي لا يضاهيها نعمة، خالصًا لوجهه، خلاف السّاهين عنها، المرائين فيها، أداءً لحقوق شكرها، فان الصلوة جامعة لجميع أقسام الشكر، وانحر: البُدْن التي هي خيار أموال العرب باسمه تعالى، وتصدّق على المحاويج خلافا لمن يدعهم ويمنع عنهم الماعون-

(أبو السّعود ٩/ ٢٠٥)

٣- **ان شانئك هو الأبتر**: أي: مبغضك، كائنًا من كان هو الأبتر، أي: الذى لا عقب له (ابو السعود ٩/ ٢٠٥) هذا جزاء كلّ من شَنَأَ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لأجل هواه، كمن تأوّل آيات الصفات أو أحاديثها على غير مراد الله تعالى ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم، أو تمنّى أن لا تكون نزلت أو قيلت، ومن أقوى العلامات على شنآنه نفرته عنها إذا سمعها حين يستدل بها السّلفي على ما دلّت عليه من الحق، وأيّ شنآن للرسول صلى الله عليه وسلم أعظم من ذالك، وكذالك أهل السّماع، الذين يرقصون على سماع الغناء والدّفوف والشبابات، فإذا سمعوا القرآن يُتلى أو قُرِأ في مجلسهم استطالوه واستثقلوه، وكذالك من آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسّنّة (روح المعاني ٣٠/ ٢٨٧)

الكافرون

يُحكى أن بعض الزنادقة سأل الحسن بن على رضى الله عنهما عن قوله تعالى: لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد، فقال: إنى أجد فى القرآن تكراراً وذكر له ذلك، فأجابه الحسن بما حاصله: أن الكفار قالوا: نعبد إلهك شهراً وتعبد آلهتنا شهراً، فجاء النفى متوجهاً الى ذلك.

والمقصود أن هذه ليست من التكرار فى شئ، بل هى حذف، والإختصار أليق، وذلك لأنّ قوله: لا أعبد ما تعبدون أى: لا أعبد فى المستقبل ما تعبدون فى المستقبل، وقوله: ولا أنا عابد ما عبدتم أى: ولا أنا عابد فى الحال ما عبدتم فى المستقبل، ولا أنتم عابدون فى الحال ما أعبد فى المستقبل.

والحاصل: أنّ القصد نفى عبادته لآلهتهم فى الأزمنة الثلاثة: الحال والماضى والمستقبل، والمذكور فى الآية: النفى فى الحال والإستقبال، وحُذف الماضى من جهته وجهتهم، ولابدّ من نفيه، لكنه حُذِفَ لدلالة الأوليين عليه.

وفيه تقدير آخر، وهى: أن الجملة الأولى فعلية والثانية اسمية، وقولك: لا أفعله ولا أنا أفعله، أحسن من قولك: لا أفعله ولا أفعله، فالجملة الفعلية نفى لإمكانه، والإسمية نفى لإتصافه كما فى قوله تعالى: وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم (الروم ٥٣/٣٠) وقوله: وما أنت بمسمع من فى القبور (فاطر ٢٢/٣٥) والمعنى: أنه تبرّأ من فعله ومن الإتّصاف به، وهو أبلغ فى النفى، وأما المشركون فلم ينتف عنهم الا بصيغة واحدة، وهى قوله: ولا أنتم عابدون ما أعبد، فى الموضعين وفرق آخر وهو: أنه قال فى نفيه الجملة الاسمية: ولا أنا عابد ما عبدتم،

وقال في النفي عنهم : ولا أنتم عابدون ما أعبد، عائدٌ في حقه بين الجملتين ،

وقال : لا أعبد ما تعبدون ، المضارع ، وفي الثاني : ولا أنا عابد ما عبدتم، بالماضي؛ فإن المضارع يدل على الدوام بخلاف الماضي، فأفاد ذلك أن ما عبدتموه ولو مرةً ما أنا عابد له ألبتة ، ففيه كمال براءته ودوامها مما عبدوه ولو مرة بخلاف قوله : لا أعبد ما تعبدون ، فإن النفي من جنس الإثبات ، وكلاهما مضارع ، يظهران جملة ومنفرداً (البرهان ٣/ ٢١، ٢٢)

قال الحافظ ابن القيم : ان قوله : لا أعبد ما تعبدون ، نفي للحال والمستقبل، وقوله : ولا أنتم عابدون ما أعبد مقابلة أي : لا تفعلون ذلك ، وقوله: ولا أنا عابد ما عبدتم أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي ، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال : ما عبدتم ، فكأنه قال : لم أعبد قط ما عبدتم، وقوله : ولا أنتم عابدون ما أعبد مقابلة أي: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائما ، وعلى هذا فلا تكرار أصلاً ، وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضياً وحالاً ومستقبلاً عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه .

(بدائع الفوائد ١/ ١٣٥)

٦- لكم دينكم ولي دين : هذا الأخبار : بأن لهم دينهم وله دينه ، هل هو إقرار فيكون منسوخاً أو مخصوصاً أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص ؟ فهذه مسئلة شريفة من أهم المسائل المذكورة ، وقد غلط في السورة خلائق ، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف ؛ لإعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقدير لهم على دينهم ، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب ، وكلا القولين غلط محض ، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص ، بل هي محكمة ، عمومها نص محفوظ ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها ، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه ، وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص ، ومنشأ الغلط ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على

دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسّيف فقالوا منسوخ.

وقالت طائفة : زال عن بعض الكفار، وهم من لا كتاب لهم فقالوا : هذا مخصوص، ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريرًا لهم أو إقرارًا على دينهم أبدًا، بل لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشد على الإنكار عليهم، وعيب دينهم وبتركونه وشأنه، فأبى إلّا مضيًّا على الإنكار عليهم وعيب دينهم، فكيف يقال : ان الآية اقتضت تقريره لهم ؟ معاذ الله من هذا الزعم الباطل، وانما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم، وأنّ ماهم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدًا، فانه دين باطل، فهو مختص بكم، لا نشركم فيه، ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق فهذا غاية البراءة والتنصل عن موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص ؟ (بدائع الفوائد ١/١٤١)



وتسمى سورة التوديع ، وهى آخر سورة نزلت جميعا كما فى صحيح مسلم عن ابن عباس (القرطبى ٢٠ / ٢٢٩)

١- إذا جاء نصر الله الفتح : أى : اعانته تعالى وإظهاره اياك على عدوّك ، والفتح أى: فتح مكة ، وقيل : جنس نصر الله تعالى ومطلق الفتح ، فان فتح مكة لما كان مفتاح الفتوح و مناطها كما أن نفسها أمّ القرى وإمامها ، جعل مجيئه بمنزلة مجيئ سائر الفتوح (أبو السّعود ٩/ ٢٠٨)

٢- أفواجًا : حال من فاعل يدخلون أى : يدخلون فيه جماعات كثيفة ، كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب ، وكانوا قبل ذالك يدخلون واحدًا واحدًا واثنين اثنين (أبو السّعود ٩/ ٢٠٨)

٣- فسبح بحمد ربك : أى : فنزّهه تعالى بكلّ ذكر يدلّ على التنزيه حامدًا له جل وعلا ، زيادةً فى عبادته والثناء عليه سبحانه لزيادة إنعامه سبحانه عليك ، فالتسبيح : التنزيه ، لا التلفظ بكلمة سبحان الله (روح المعانى ٣٠/ ٢٩٧)

٣- واستغفره : هضماً لنفسك وإستقصاراً لعملك وإستعظاماً لحقوق الله تعالى وإستدراكًا لما فرط منك من ترك الأولى (أبو السّعود ٩/ ٢٠٩)

اللَّهَب

١ـ تبّت يدا أبي لهب : معنى تبّت : خسرت ، قاله قتادة ، وقيل : خابت ، قاله ابن عباس ، وقيل : ضلّت ، قاله عطاء ، وقيل : هلكت ، قاله ابن جبير ، وقال يمان بن رئاب : صَفِرَت من كلّ خير (القرطبي ٢٠/ ٢٣٥) وخصّ اليدين بالتباب لأن العمل أكثر ما يكون بهما أى : خسرتا وخسر هو ، وقد يعبّر عن النفس باليد ، كما قال الله تعالى : بما قدّمت يداك (الحج ٢٢/ ١٠) أى : نفسك (القرطبي ٢٠/ ٢٣٦) وتبّ ، قال الفراء : التبّ الأول : دعاء ، والثاني : خبر ، كما يقال : أهلكه الله وقد هلك (القرطبي ٢٠/ ٢٣٦)

أبو لهب هو : عبد العزّى بن عبد المطلب بن هاشم ، عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكُنِّي بأبي لهب لحسنه وإشراق وجهه ، فان قلت : لم كناه ، وفي الكنية تشريف وتكرمة ؟ قلت : فيه وجوه : (١) انه كان مشتهراً بالكنية دون الإسم ، فلو ذكر باسمه لم تعرف ـ (٢) أنه كان اسمه عبد العزى ، فعدل عنه الى كنيته لما فيه من الشرك (٣) أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى النار ، والنار ذات لهب ، وافقت حاله كنيته ، وكان جديراً بأن يذكر بها (الخازن ٧/ ٣١٧ ؛ التعريف والإعلام / ١٨٨)

عن جامع بن شداد عن طارق المحاربي قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ في سوق ذى المجاز ، وعليه حلّة حمراء وهو يقول : يا ايها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة ، قد أدمى كعبيه وعرقوبيه ، وهو يقول : يا أيها الناس لا تطيعوه فانه كذاب ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : غلام بني عبد المطلب ، فقلت : من هذا الذى يتبعه يرميه بالحجارة ؟ قالوا هذا عبد العزى

أبولهب (ابن خزيمة ١/ ٨٢، أسد الغابة ٣/ ٤٩)

٤ - وامرأته حمّالة الحطب : وامرأته هي : أم جميل بنت حرب بن أمية واسمها العَوْاء (التعريف والاعلام ١٨٨) وكانت عوراء (القرطبي ٢٠/ ٢٣٩) حمالة الحطب، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : كانت تمشي بالنميمة بين الناس، تقول العرب : فلان يحطب على فلان : اذا ورّش عليه (القرطبي ٢٠/ ٢٣٩، الخازن ٧/ ٣١٨ ؛ روح المعاني ٣٠/ ٣٠٣)

كانت نمّامة حمّالة للحديث إفساداً بين الناس، وسمّيت النميمة حطباً لانها تنشر العداوة بين الناس كما أنّ الحطب ينشر النار (الزواجر عن إقتراف الكبائر ٢/ ٢٣)

الإخلاص

فضلها : (١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا زلزلت تعدل نصف القرآن وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن (الترمذى ٢ / ١١٧)

(٢) عن أبي أيوب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيعجز أحدكم أن يقرأ فى ليلة ثلث القرآن ، من قرأ : قل هو الله أحد فقد قرأ ثلث القرآن . (الترمذى ٢ / ١١٧)

١ - **قل هو الله أحد** : أى : الواحد الوتر الذى لا شبيه له ، ولا نظير ولا صاحبة ولا ولد ولا شريك (القرطبى ٢٠ / ٢٤٤) يعنى : الواحد الأحد الذى لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد فى الإثبات إلّا على الله عزوجل ، لانه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله (ابن كثير ٤ / ٣٩٨)

واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان ، كلّها صحيحة فى حقّه تعالى :

(١) انه واحد لا ثانى معه ، فهى نفى للعدد .

(٢) انه واحد لا نظير له ولا شريك ، كما تقول : فلان واحد فى عمره أى : لا نظير له .

(٣) انه واحد لا ينقسم .

والمراد بالسورة نفى الشريك ردّاً على المشركين ، وقد أقام الله تعالى فى القرآن براهين قاطعة على وحدانيته ، وذالك كثير جدّاً ، وأوضحها أربعة براهين :

(١) قوله تعالى : أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ (النحل ١٦ / ١٧) وهذا دليل الخلق والإيجاد ، فإذا ثبت أن الله تعالى خالق بجميع الموجودات لم يصحّ أن يكون واحد منها شريكاً .

(٢) قوله تعالى : لوكان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا (الانبياء ٢١ / ٢٢) وهو دليل الإحكام والإبداع

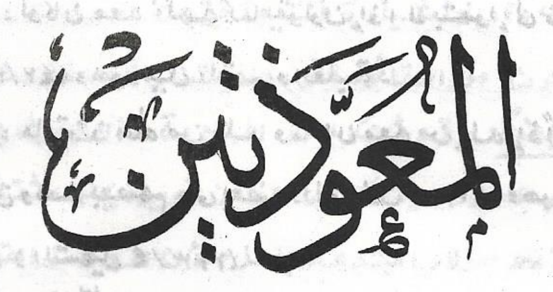
(٣) قوله تعالى : لوكان معه آلهة كما يقولون إذاً لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا (الاسراء ٤٢/١٧) وهو دليل القهر والغلبة .

(٤) قوله تعالى : ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعضٍ (المؤمنون ٩١/٢٣) وهو دليل التنازع والاستعلاء (التسهيل ٤/ ٢٢٣)

٢ - الله الصّمد : أى : المستغنى عن كل أحد ، والمحتاج اليه كل أحد (شرح الفقه الأكبر لعلى القارى/ ١٦) يعنى : السيد الغنى عن كلّ شيئٍ ، الذى يفتقر اليه كل شيئٍ سواه (شرح الفقه الاكبر لابى المنتهى/ ١١) قال ابن الأنبارى: لا خلاف بين أهل اللغة أنه السيد الذى ليس فوقه أحد ، الذى يصمد اليه فى حوائجهم و امورهم ، وقال الزجاج : هو الذى ينتهى اليه السّؤدد ويصمد اليه أى : يقصده كل شيئٍ (روح المعانى ٣٠ / ٣١٥) وعن أبى هريرة رضى الله عنه : هو المستغنى عن كل أحد (روح المعانى ٣١٥/٣٠)

وقال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى : الذى يصمد اليه الخلائق فى حوائجهم ومسائلهم (ابن كثير ٤/ ٤٩٨)

أى : هو الذى يقصده العباد ويتوجهون اليه ، لقضاء ما أهمّهم دون واسطة إلى شفيع ، وبهذا أبطل عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء ، وعقيدة غيرهم من أهل الأديان الأخرى الذين يعتقدون بأن لرؤسائهم منزلة عند ربهم ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغاهم ، فيلجئون اليهم أحياء وأمواتا ، ويقومون عند قبورهم خاضعين خاشعين ، كما يخشعون لله أو أشد خشية (المراغى ٣٠/ ٢٦٥)



فضلهما (١) عن عائشة رضى الله عنها : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا آوى الى فراشه كل ليلة جمع كفّيه ثم نفخث فيهما ، فيقرأ فيهما : قل هو الله احد وقل اعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذالك ثلاث مرّات (البخارى ٧٥٠/٢)

(٢) وعنها أيضاً : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوّذات وينفث ، فلمّا اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها (البخارى ٧٥٠/٢)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : سُحِرالنبى صلى الله عليه وسلم حتى كان يُخيّل اليه أنه يفعل الشيئ وما يفعله حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت أن الله قد أفتانى فيما فيه شِفائى ، أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلىّ فقال أحدهما للآخر : ما وَجَعُ الرّجل ؟ قال : مطبوب[1] قال : ومن طبّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : فيماذا ؟ قال : فى مشط ومشاقة[2] وجُفّ[3] طلعةٍ ذكرٍ ، قال فى بئر ذروان[4] ..... الحديث (البخارى ٤٩٢/١ ، مسلم ٢٢١/٢)

---

[1] المطبوب : المسحور [2] المشاقة : مايستخرج ويغزل من الكتان .

[3] الجُفّ : (بضم الجيم وتشديد الفاء) الغشاء الذى يكون على الطّلع ، ويطلق على الذكروالأنثى فلذا قيّده بقوله : ذكرٍ .

[4] بئرذروان : هى بئر بالمدينة فى بستان بنى زُريق ＊

قال الإمام الرازي: إعلم أن المعتزلة أنكروا ذلك (أى: السّحر) بأسرهم

قال القاضى: هذه الرواية باطلة، وكيف يمكن القول بصحتها والله تعالى يقول: والله يعصمك من الناس، وقال: ولا يفلح السّاحر حيث أتى، ولأن تجويزه يفضى الى القدح فى النبوة، ولأنه لو صحّ ذالك لكان من الواجب أن يصلوا إلى الضرر لجميع الأنبياء والصّالحين ولَقَدَرُوا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم، وكلّ ذالك باطل، ولأن الكفار كان يعيرونه بأنه مسحور، فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين فى تلك الدعوة ولحصل فيه عليه السّلام ذالك العيب[1]، ومعلوم أن ذالك غير جائز.

والجواب: أن الكفار كانوا يريدون بكونه مسحورًا: أنه مجنون، أزيل عقله بواسطة السّحر، فلذالك ترك دينهم، فأما أن يكون مسحورًا بألم يجده فى بدنه فذالك مما لا ينكره أحد، وبالجملة فالله تعالى ما كان يسلّط عليه لاشيطانا ولا انسيًا ولا جنّيًا يوذيه فى دينه وشرعه ونبوته، فأمّا فى الإضرار ببدنه فلا يبعد (التفسير الكبير ۲۲/ ۱۸۷، ۱۸۸)

قال الإمام النَّوَوى: قال الامام المازرى: مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السّحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الاشياء الثابتة، خلافا لمن أنكر ذالك ونفى حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لاحقائق لها، وقد ذكره الله تعالى فى كتابه، وذكر أنه ممّا يتعلّم، وذكر ما فيه اشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق بين المرء وزوجه، وهذا كلّه لا يمكن فيما لا حقيقة له، وهذا الحديث أيضًا مصرّح

---

(۱) وقد أنكر الجصاص الحنفى حيث قال: ومثل هذه الاخبار من وضع الملحدين، تلعبا بالحشو الطغام واستجرارًا لهم الى القول بإبطال معجزات الأنبياء عليهم السلام.

(احكام القرآن ۱/ ٤٩)

بإثباته، وأنه أشياء دُفنت وأخرجت، وهذا كلّه يبطل ما قالوه، فإحالة كونه من الحقائق محال، ولا يُستنكر في العقل (شرح المسلم ٢/ ٢٢١)

وقال أيضًا: وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر، فزعم أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع، وهذا الذى ادّعاه هؤلاء المبتدعة باطل، لأن الدلائل القطعية قد قامت على صحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك، وتجويز ما قام الدّليل بخلافه باطل، فأمّا ما يتعلق ببعض أمور الدّنيا التى لم يبعث بسببها، ولا كان مفضلا من أجلها، وهو مما يعرض للبشر، فغير بعيد أن يُخيل إليه من أمور الدنيا مالا حقيقة له. (شرح المسلم ٢ / ٢٢١)

وقال أيضاً: قال القاضى عياض: وقد جاءت روايات هذا الحديث مبيّنة أن السحر انما تَسلّطَ على جسده وظواهر جوارحه، لا على قلبه وعقله واعتقاده. (شرح المسلم ٢/٢٢١)

قال الحافظ العسقلانى: ووقع فى مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد: فقالت أخت لبيد بن الأعصم إن يكن نبيا فسيخبر وإلّا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله، قلت: فوقع الشق الأوّل كما فى هذا الحديث الصحيح.

(فتح البارى ١٠/ ٢٢٧)

قال الحافظ ابن القيّم: السحر الذى أصابه كان مرضًا من الأمراض، عارضًا شفاه الله منه، ولا نقص فى ذالك ولا عيب بوجهٍ مّا، فان المرض يجوز على الانبياء، وكذالك الإغماء، فقد أغمى عليه فى مرضه، ووقع حين انفكّت قدمه جُحِش شقّه[1]، وهذا من البلاء الذى يزيده الله به رفعة فى درجاته ونيل كرامته، وأشدّ الناس

---

[1] فى الحديث: انه صلى الله عليه وسلم سقط عن فرس فجحش شقه أى: انخدش، وكان ذالك فى غزوة أُحُد حين تكأكأ عليه المشركون

بلاءً الأنبياء ، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به : من القتل والضرب والشتم والحبس ، فليس ببدع أن يبتلى بالذى ألقى على ظهره السَّلا[1] وهو ساجد وغير ذلك فلا نقص عليهم ولا عار فى ذلك ، بل هذا من كما لهم وعلو درجاتهم عند الله تعالى (بدائع الفوائد ٢/ ٢٢٤)

وقال أيضًا : وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث ، متلقى بالقبول بينهم لا يختلفون فى صحته ، وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم ، وأنكروه أشد الإنكار وقابلوه بالتكذيب ، وصنّف بعضهم فيه مصنفًا منفردًا ، حمل فيه على هشام ، وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال : غلط واشتبه عليه الأمر ..... وهذا الذى قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم ، فإن هشامًا من أوثق الناس وأعلمهم ، ولم يقدح فيه أحد من الائمة بما يوجب رد حديثه ، فما للمتكلمين وما لهذا الشأن ، وقد رواه غير هشام عن عائشة ، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث ، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة ، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء ، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين (بدائع الفوائد ٢/ ٢٢٣ ، ٢٢٤)

فإن قيل : نحتج على منع السحر بقوله تعالى : والله يعصمك من الناس (المائدة ٥/ ٦٧)

قلت : عنه جوابان :

(١) أنه عصمه عن القتل والأسر وتلف الجملة ، فأمّا عوارض الأذى فلا تمنع عصمة الجملة.

(٢) أن هذه الآية نزلت بعد ما جرى عليه ذلك ، لأن المائدة من أواخر ما نزل بالمدينة ، وقد سُحِر وأوذِىَ قبل نزول هذه الآية.

---

[1] السَّلا : ما يخرج من بطن الناقة ونحوها مع الولد ممّا كان فى الرّحم لحفظه

فان قيل : نحتج بقوله تعالى : اذ يقول الظالمون إن تتبعون الا رجلا مسحورًا. (الاسراء ٤٧/١٧) وبقوله : وقال الظالمون إن تتّبعون الا رجلا مسحورًا. (الفرقان ٨/٢٥)

قلت : أن المسحور على بابه ، وهو من سُحِر حتى جُنَّ ، فقالوا : مسحور مثل مجنون أى : زائل العقل ، لايعقل مايقول ، فان المسحور الذى لا يتّبع : هو الذى فسد عقله بحيث لا يدرى ما يقول ، فهو كالمجنون ، ولهذا قالوا فيه : معلّم مجنون (الدخان ١٤/٤٤) فأمّا من أُصيب فى بدنه مِن مرضٍ من الأمراض يُصاب به الناس فانه لايمنع ذالك من إتّباعه ، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان ، وانّما قذفوهم بما يحذّرون به سفهاءهم من أتباعهم ، وهو أنهم قد سُحروا ، حتى صاروا لايعلمون ما يقولون ، بمنزلة المجانين ـــ والمسلمون لايقولون بمقالة الظالمين المفترين (بدائع الفوائد ٢/ ٢٢٦)

فان قيل : السحر تخيل فقط ، كما فى قوله تعالى : فإذا حبالهم وعصيّهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى (طه ٢٠/ ٥٧)

قلت : قال الحافظ ابن حجر : هذه الأية عمدة من زعم أن السحر انما هو تخييل ، ولا حجة له بها ، لأن هذه وردت فى قصة سحرة فرعون ، وكان سحرهم كذالك (أى: تخييلًا) ولايلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل (فتح البارى ١٠/ ٢٢٥)

فان قيل : نستدل بقوله تعالى : ولا يفلح السّاحر حيث أتى (طه ٢٠/ ٦٩)

قلت : معناه : لايسعد السّاحر حيث كان ولا يفوز ، وليس معنى لايفلح : لا يستطيع السّحر ، بل إذا سحر فلا يفلح ، ولايأمن من حيث وُجد ، فذالك عدم فلاحه.

ابن مسعود رضى الله عنه وانكاره : أخرج أحمد والبزّاز والطبرانى وابن مردويه من طريق صحيحة عن ابن عباس وابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين من المصحف ، ويقول لاتخلطوا القرآن بما ليس منه ، انهما ليستا من كتاب الله ، إنّما أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتعوّذ بهما ، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما (الدر المنثور ٤١٦/٦ ، فتح القدير ٥١٨/٥)

قلت : (١) أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لقد أنزل علي آيات لم ينزل عليّ مثلهن : المعوذتين (الدر المنثور ٦/ ٤١٦ ، نزل الأبرار/ ١٤٤)

(٢) قال الفخر الرازي : الأغلب على الظن أن هذا النقل عن ابن مسعود كذب باطل (فتح الملهم ٢/ ٣٥٨)

(٣) وقد عقد القاضي أبو بكر في كتابه : الإنتصار للقرآن ، وهو الكتاب العظيم لا ينبغي لعالم أن يخلو عن تحصيله باباً ، فيه خطأ النقل عن عبد الله بن مسعود ، و أن الدليل القاطع قائم على كذب به على عبد الله بن مسعود وبراءته منها (طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ٢/ ٢٠٧)

(٤) ان نسبة الإنكار إلى ابن مسعود باطل (فواتح الرحموت ١/ ٩)

(٥) وكل ماروى عن ابن مسعود من أن المعوذتين وأم القرآن لم تكن في مصحفه فكذب موضوع ، لا يصح ، وانما صحت عنه قراءة عاصم عن زر بن حبيش عنه وفيها المعوذتان والفاتحة (البرهان ٢/ ١٢٨ ؛ المحلى ١/ ١٣ ، فتح الملهم ٢/ ٣٥٨)

(٦) قال النووي في شرح المهذب : وما نقل عن ابن مسعود فهو باطل ، ليس بصحيح (البرهان ٢/ ١٢٨)

(٧) وقال النووي أيضاً : وفي هذا الحديث دليل واضح على كونهما من القرآن ، ورد على من نسب إلى ابن مسعود خلاف ذلك ، قال في المفتاح : وما نسب الى ابن مسعود لا يصح ، بل تواتر عنه عندنا أنهما من القرآن ، ولا يتم ختم القرآن إلا بهما ، وصحت الأحاديث بذلك من طرق وانعقد إجماع المسلمين على ذلك (شرح المسلم ١/ ٢٧٢ ، نزل الأبرار/ ١٤٤ ، النبراس/ ٤٣٩)

فإن قيل : قال ابن قتيبة : لم يكتب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في مصحفه المعوذتين ، لأنه كان يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما بهما ، فقدر أنهما بمنزلة : أعيذكما بكلمات الله التامة ، من

كل شيء وهامة ، ومن كل عين لامّة . (القرطبي ٢٠ / ٢٥١)

قلت : قال أبو بكر الأنباري : وهو مردود على ابن قتيبة ، لأن المعوذتين من كلام رب العالمين ، المعجز لجميع المخلوقين ، وأعيذكما بكلمات الله التامة من قول البشريين ، وكلام الخالق الذي هو آية لمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وحجة له باقية على جميع الكافرين ، لا يلتبس بكلام الآدميين ، على مثل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الفصيح اللسان ، العالم باللغة ، العارف بأجناس الكلام وأفانين القول (القرطبي ٢٠ / ٢٥١)

فإن قيل : قال بعض الناس : لم يكتب ابن مسعود رضي الله المعوذتين ، لأنه أمن عليهما النسيان فأسقطهما ، وهو يحفظهما (القرطبي ٢٥١/٢٠ ، البرهان ٢ / ١٢٨)

قلت : رد هذا القول على قائله ، واحتج عليه بأنه قد كتب : إذا جاء نصر الله والفتح ، وإنا أعطيناك الكوثر ، وقل هو الله أحد ، وهن يجرين مجرى المعوذتين في أنهن غير طوال ، والحفظ إليهن أسرع ، ونسيانهن مأمون (القرطبي ٢٠/ ٢٥١)

فإن قيل : قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا الأزرق بن علي ، حدثنا حسان بن ابراهيم ، حدثنا الصلت بن بهرام عن ابراهيم بن علقمة قال : كان ابن مسعود رضي الله عنه يحك المعوذتين من المصحف (ابن كثير ٤/ ٤٩٩)

قلت : أزرق بن علي صدوق يغرب (التقريب / ٢٩) ، ذكره ابن حبان في الثقات وقال : يغرب (التهذيب ١/ ٢٠٠) وحسان بن ابراهيم وثقه أحمد وغيره ، وقال أبو زرعة : لا بأس به ، قال النسائي : ليس بالقوي ، وقال ابن عدي : حدث بأفرادات كثيرة وهو من أهل الصدق إلا أنه يغلط (الميزان ١/ ٤٧٧ ، خلاصة التهذيب ١/ ٢٠٥) والصلت ابن ابراهيم قال فيه أحمد : كوفي ثقة ، وقال أبو حاتم : لا عيب له إلا الإرجاء ، وكذا تكلم فيه أبو زرعة للإرجاء (الميزان)

فإن قيل : الأعمش عن أبي اسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد قال : كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يحك المعوذتين من مصاحفه ويقول : إنهما ليستا من كتاب الله (ابن كثير ٤/ ٣٩٩)

<u>قلت</u> : الأعمش هو: سليمان بن مهران، وكان يدلّس، وصفه بذلك الكرابيسي والنسائي والدارقطني وغيرهم (طبقات المدلّسين/١٠؛ خلاصة التهذيب ١/٤٢٠) وهو يدلس وربما دلّس عن ضعيف، ولا يدري به، فمتى قال: حدثنا فلا كلام، ومتى قال: عن، تطرّق إليه احتمال التدليس (الميزان ٢/٢٢٤)

الفلق

١- **أعوذ** : إعلم أن لفظة (عاذ) وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها : الهروب من شيء تخافه الى مَن يعصمك منه، ولهذا يسمّى المستعاذ به : مَعَاذاً كما يسمّى ملجأً ووزراً، وفي الحديث : أنّ ابنة الجَوْن لما أدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها، قالت : أعوذ بالله منك، فقال لها : لقد عُذْتِ بمَعاذ، ألحقي بأهلك، فمعنى أعوذ : ألتجئ وأعتصم وأتحرّز، وفي أصله قولان : (١) انه مأخوذ من السّتر (٢) انه مأخوذ من لزوم المجاورة، فأمّا مَن قال : انّه مأخوذ من الستر فقال : العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها : عُوَّذ (بضم العين وتشديد الواو وفتحها) فكأنه لمّا عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلّها سمّوه : عُوَّذاً، فكذالك العائذ قد استتر من عدوّه بمن استعاذ به منه واستجنّ به منه، ومن قال : هو لزوم المجاورة قال : العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه : عُوّذ، لأنه اعتصم به واستمسك به، فكذالك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه. (بدائع الفوائد ٢/٢٠٠)

المستعاذ به هو الله وحده رب الفلق ورب الناس، ملك الناس، اله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة الّا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره، وقد أخبر تعالى في كتابه عن من استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغياناً ورهقاً، فقال حكاية عن مؤمني الجن : وانه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً (الجن ٧٢/٦) جاء في التفسير : انه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر

فامسى فى أرض قفر قال : أعوذ بسيّد هذا الوادى من شر سفهاء قومه ، فيبيت فى أمن وجوار منهم حتى يصبح أى : فزاد الإنسُ الجنَّ باستعاذتهم بسادتهم رهقاً أى : طغياناً وإثماً وشرّاً ، والرهق فى كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاظم فظنوا أنهم سادوا الانس والجن.

وا حتج أهل السنة على المعتزلة فى أن كلمات الله غير مخلوقة ، بأن النبى صلى الله عليه وسلم استعاذ بقوله : أعوذ بكلمات الله التامات ، وهو صلى الله عليه وسلم لا يستعيذ بمخلوق أبداً ، ونظير ذالك قوله : أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك ، فدلّ على أنّ رضاه وعفوه من صفاته وأنه غير مخلوق ، وكذالك قوله : أعوذ بعزة الله وقدرته ، وقوله : أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وما استعاذ به النبى صلى الله عليه وسلم غير مخلوق ، فانه لا يستعيذ إلاّ بالله تعالى أو صفة من صفاته (بدائع الفوائد ٢/ ٢٠٣ ، ٢٠٤)

١- **الفلق** : الصبح ، يقال : هو أبين من فلق الصبح ، وسمّى فلقاً لانه يفلق عنه الليل ، وهو فَعَل بمعنى مفعول ، قال الزجاج : لأن الليل ينفلق عنه الصبح ويكون بمعنى مفعول ، يقال : هو أبين من فلق الصبح ومن فرق الصّبح ، وهذا قول جمهور المفسّرين (فتح القدير ٥/٥١٩)

وقد قيل فى وجه تخصيص الفلق الإيماء إلى أنّ القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كلّ هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كلّ ما يخافه ويخشاه ، وقيل : طلوع الصّبح كالمثال لمجيئ الفرج ، فكما أنّ الإنسان فى الليل يكون منتظراً لطلوع الصبح ، كذالك الخائف يكون مترقباً لطلوع صبح النجاح (فتح القدير ٥/٥١٩/٥٢٠)

واعلم أن الخلق كله فلق ، وذالك أنّ فَلَقًا فَعَل بمعنى مفعول كقبض وسلب وقنص بمعنى : مقبوض ومسلوب ومقنوص ، قال الله عز وجل : فالق الحبّ والنّوى (الأنعام ٦/٩٥) وقال : فالق الإصباح (الأنعام ٦/ ٩٦) وهو فالق الأرض عن النبات والجبال

عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأجنة والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة فلقا وفرقا، يقال: هو أبيض من فرق الصبح وفلقه (بدائع الفوائد ٢/٢٢٠، ٢٢١)

٢- من شر ما خلق: فإن قيل: فهل في (ما) هاهنا عموم؟ قلت: فيها عموم تقييدي وصفي، لا عموم إطلاقي، والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه، وليس المراد الاستعاذة من شر ما خلقه الله، فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملئكة والأنبياء فإنهم خير محض، والخير كله حصل على أيديهم، فالاستعاذة من شر ما خلق تعم شر كل مخلوق فيه شر. (بدائع الفوائد ٢/٢١٥)

٣- ومن شر غاسق إذا وقب: هذا خاص بعد عام، وقد قال أكثر المفسرين انه الليل، قال ابن عباس: الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق ودخل في كل شيء وأظلم، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس، وقال مقاتل: يعني: ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار، وفي تسمية الليل غاسقاً قول آخر: أنه من البرد، والليل أبرد من النهار، والغسق: البرد، وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى: هذا فليذوقوه حميم وغساق (ص ٥٧/٣٨) وقوله: لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميما وغساقا (النبأ ٧٨/ ٢٥) قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرها وكذلك قال مجاهد ومقاتل، ولا تنافي بين قولين، فان الليل بارد مظلم، فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط فقد اقتصر على أحد وصفيه، والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة، فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق الذي هو الصبح والنور من شر الغاسق الذي هو الظلمة، فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة (بدائع الفوائد ٢/ ٢١٦)

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الترمذي من حديث ابن أبي ذئب عن

الحرث بن عبد الرحمن عن أبي سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت: أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيدى فنظر إلى القمر فقال: يا عائشة استعيذى بالله من شر هذا، فان هذا هو الغاسق إذا وقب، قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وهذا أولى من كل تفسير، فيتعين المصير اليه.

قيل: هذا التفسير حق، ولا يناقض التفسير الأول، بل يوافقه ويشهد بصحته، فان الله تعالى قال: وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة (الاسراء ١٧/١٢) فالقمر هو آية الليل وسلطانه فهو أيضاً غاسق إذا وقب، كما أن الليل غاسق إذا وقب، والنبى صلى الله عليه وسلم أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب، وهذا خبر صدق وهو أصدق الخبر، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب، وتخصيص النبى صلى الله عليه وسلم له بالذكر لا ينفى شمول الإسم لغيره، ونظير هذا قوله فى المسجد الذى أسس على التقوى، وقد سئل عنه فقال: هو مسجدى هذا، ومعلوم أن هذا لا ينفى كون مسجد قبا مؤسسًا على التقوى مثل ذلك، ونظيره أيضًا قوله فى على وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم: اللهم هؤلاء أهل بيتى، فان هذا لا ينفى دخول غيرهم من أهل بيته فى لفظ أهل البيت، ولكن هؤلاء أحق من دخل فى لفظ أهل بيته، ونظير هذا قوله: ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس شيئًا ولا يفطن له فيتصدق عليه، وهذا لا ينفى اسم المسكنة عن الطواف بل ينفى اختصاص الاسم به، وتناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له، ونظير هذا قوله: ليس الشديد بالصرعة ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب، فانه لا يقتضى نفى الإسم عن الذى يصرع الرجال ولكن يقتضى أن ثبوته للذى يملك نفسه عند الغضب أولى، ونظيره الفسق والوقوب وأمثال ذلك، فكذلك قوله فى القمر: هذا هو الغاسق اذا وقب، لا ينفى أن يكون الليل غاسقًا بل كلاهما غاسق.

(بدائع الفوائد ٢/٢١٧، ٢١٨)

٤- ومن شر النفاثات فى العقد : هذا الشر هو شر السحر ، فان النفاثات فى العقد هن السواحر اللاتى يعقدن الخيوط و ينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يريدون من السحر ، والنفث هو : النفخ مع ريق ، وهو دون التفل ، وهو مرتبة بينهما ، والنفث فعل الساحر ، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذى يريده بالمسحور ، ويستعين به بالأرواح الخبيثة نفخ فى تلك العقد نفخا معه ريق ، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى ممازج لذلك ، وقد تساعد لذالك هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيقع فيه السحر باذن الله الكونى القدرى لا الأمر الشرعى . (بدائع الفوائد ٢/٢٢١)

فان قيل : فالسحر يكون من الذكور والإناث ، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور ؟

قيل : ان هذا خرج على السبب الواقع ، وهو أن بنات لبيد بن أعصم سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، هذا جواب أبى عبيدة وغيره وليس هذا بسديد ، فان الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم هو لبيد بن أعصم كما جاء فى الصحيح ،

والجواب المحقق : أن النفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النافثات ، لأن تأثير السحر انما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة ، وسلطانه انما يظهر منها ، فلهذا ذكر النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير ، والله أعلم (بدائع الفوائد ٢/٢٢١ ، روح المعانى ٣٠/ ٢٣٥)

وقيل فى الآية : المراد بالنفث فى العقد : إبطال عزائم الرجال بالحيل ، مستعار من تليين العقد بنفث الريق ليسهل حلها ، وهو يقرب من بدع التفاسير (روح المعانى ٣٠/ ٣٢٧)

٥ - ومن شر حاسد إذا حسد : يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب :

(١) التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجاء اليه ، وهو المقصود بهذه السورة ، والله تعالى سميع لاستعاذته ، عليم بما يستعيذ منه ، والسمع هنا

المراد به : سمع الإجابة ، لا السمع العام ، فهو مثل قوله : سمع الله لمن حمده ، وقول الخليل عليه السلام : إنّ ربي لسميع الدعاء (ابراهيم ١٤/٣٩)

(٢) تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه ، فمن اتقى تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره ، قال الله تعالى : وإن تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئًا (آل عمران ٣/١٢١)

(٣) الصّبر على عدوّه وأن لا يقاتله ولا يشكوه ، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً ، قال الله تعالى : ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله (الحج ٢٢/٦٠)

(٤) التوكل على الله تعالى : ومن يتوكل على الله فهو حسبه (الطلاق ٦٥ / ٣)

(٥) فراغ القلب من الإشتغال به والفكر فيه ، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلّما خطر له ، فلا يلتفت اليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه .

(٦) الإقبال على الله والإخلاص له ، وجعل محبته ورضاه والإنابة اليه في محلّ خواطر نفسه وأمانيها ، تدبّ فيها دبيب تلك الخواطر شيئًا فشيئًا ، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية .

(٧) تجريد التوبة إلى الله تعالى من الذنوب التي سلطت عليه أعدائه ، فان الله تعالى يقول : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم (الشورى ٤٢/٣٠)

(٨) الصدقة والإحسان ما أمكنه ، فان لذالك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد .

(٩) إطفاء نار الحاسد والباغي والموذي بالاحسان اليه ، قال الله تعالى : اولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون (القصص ٢٨/٥٤) وقال : ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقّاها إلاّ الذين صبروا وما يلقّاها الاّ ذو حظّ عظيم (فصّلت ٤١/٣٤،٣٥)

(١٠) تجريد التوحيد والترحل بالفكر فى الأسباب إلى المسبّب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرّياح ، وهى بيد محركها وفاطرها وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلّا باذنه ، فهو الذى يحسن عبده بها ، وهو الذى يصرفها عنه وحده ، لا أحد سواه ، قال تعالى : وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلّا هو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله (يونس ١٠/١٠٧)

(بدائع الفوائد ٢/٢٣٨ — ٢٤٥)

النّاس

١- برب الناس: أي: مالك أمورهم ومربيهم بإضافة ما يصلحهم ودفع ما يضرهم (روح المعاني ٣٠/٣٢٩) وانما ذكر أنه رب الناس، وان كان ربًّا لجميع الخلق لأمرين (١) لأن الناس معظمون، فأعلم بذكرهم أنه رب لهم وإن عظموا (٢) لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يُعيذ منهم (القرطبي ٢٠/ ٢٦٠)

٢- ملك الناس: عطف بيان، جيئ به لبيان أن تربيته تعالى إيّاهم ليست بطريق تربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل والمتصرف الكلي والسلطان القاهر (روح المعاني ٣٠/٣٢٩)

وانما قال: ملك الناس وإله الناس لأن في الناس ملوكًا يذكر أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره، فذكر أنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به ويُلجأ إليه دون الملوك والعظماء (القرطبي ٢٠/ ٢٦١)

٤- الوسواس الخنّاس: الخنوس: الإنقباض والاستخفاء، خَنَسَ من بين أصحابه يَخنِس ويخنُس خُنوسًا وخناسًا وانْخَنَسَ: انقبض وتأخّر، وقيل: رَجَعَ، وأخنسه غيره: خَلّفه ومضى عنه، وفي الحديث: الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خَنَسَ أي: انقبض منه وتأخّر، قال الأزهري: وكذا قال الفرّاء في قوله تعالى: من شر الوسواس الخناس، قال: ابليس يوسوس في صدور الناس، فاذا ذكر الله خَنَسَ، وقيل: إنّ له رأسًا كرأس الحيّة يجثم على القلب، فاذا ذكر الله تنحى وخَنَسَ، وإذا ترك ذكر الله رجع الى القلب يوسوس (لسان العرب ٦/ ٧١، النهاية ٢/ ٣)

يعني من شر الشيطان ، والمعنى : من شر ذي الوسواس ، فحذف المضاف ، قاله الفراء ، وهو بفتح الواو وبمعنى الاسم ، أي : المُوَسْوِس ، وبكسر الواو : المصدر ، يعني الوسوسة ، وكذا الزَّلزال والزِّلزال ، والوسوسة : حديث النفس (القرطبي ٢٠/٢٦١)

قاعدة نافعة : فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ، ويحترز به منه ، وذلك عشرة أسباب :

(١) الإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم : وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله . (الأعراف ٧/٢٠٠ ، فصّلت ٤١/٣٦)

(٢) قراءة هاتين السّورتين أي : الفلق والناس ، فإن لهما تأثيرًا عجيبًا في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصّن منه ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما تعوّذ المتعوّذون بمثلهما .

(٣) قراءة آية الكرسي كما في الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) قراءة سورة البقرة ، ففي الصحيح من حديث سهيل بن عبد الله عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ، وانّ البيت الذي تقرأ فيها البقرة لا يدخله الشيطان .

(٥) خاتمة سورة البقرة ، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه .

(٦) أول سورة حم المؤمن إلى قوله : اليه المصير مع آية الكرسي ، كما في الترمذي من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة ابن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٧) لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير ،

مائة مرة ، كما فى الصحيحين من حديث سُمَىّ مولى أبى بكر عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٨) كثرة ذكر الله عزوجل ، وهو من أنفع الحروز من الشيطان.

(٩) الوضوء والصّلوة ، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ، ولا سيّما عند توارد قوة الغضب والشهوة ، فانها نار تغلى فى قلب ابن آدم.

(١٠) إمساك فضول النظر والكلام والطعام ، و مخالطة الناس ، فان الشيطان يتسلّط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة ، فان فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور اليه فى القلب والاشتغال به ، والفكرة فى الظفر به ، فمبدأ الفتنة من فضول النظر :

كلّ الحوادث مبداها من النظر
ومعظم النّار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها
فتك السّهام بلا قوس ولا وتر

(بدائع الفوائد ٢ /٢٦٧– ٢٧١)

لطيفة : كرّر لفظ الناس خمس مرّة ، لانّ المراد بالناس الأول : الأطفال ، و معنى الربوبية يدلّ عليه ، وبالثانى : الشاب المجاهدون فى سبيل الله ، و لفظ الملك المنبئ عن السياسة يدلّ عليه ، وبالثالث : الشيوخ المنقطعونَ الى الله تعالى ، ولفظ الإله المنبئ عن العبادة يدلّ عليه ، وبالرابع : الصالحون ، إذ الشيطان حريص على عداوتهم ، وبالخامس : المفسدون لعطفه على معوّذ منه.

(المظهرى ١٠/٣٧٩)



بسم الله الرحمن الرحيم

ألحمد لله وله الشكر بالتوفيق لتفسير كتابه العزيز، الذى لا يذلّ من لاذ به ولا يشقى، فإذ وفّقتنى يا إلهى لتفسير عبادته، ووفّقتنى على ما شئت من مضمر إشارته، فاجعلنى يا ربّاه ممّن يعتصم بحكم حبله ويتمسك بعروته الوثقى، ويأوى من المتشابهات إلى حرز معقله ويستظل بظلال كهفه الأوقى، وأعذنى به من وساوس الشيطان ومكايده، ومن الإرتكاب بشباك غروره ومصائده، واجعله لى وسيلة إلى أشرف منزل الكرامة، وسلّما أعرج فيه إلى محل السلامة.

ويارب لم أزل أسوّد الأوراق فى تحرير ما أفضت علىّ حتى بيض نسخة عمرى المشيب، وأجدّد النظر بتحديق الأحداق فيما أفضيت به من المشائخ إلى حتى بلى برد شبابى القشيب، فاللهم هب لى أمن يوم المعاد، وأعذنى بلطفك، وأغذنى بنعمتك، ووفّقنى للتى هى أزكى، واستعملنى بما هو أرضى، واسلك بى الطريقة المثلى، وزوّدنى مطيات الهدى وزوّدنى باقيات التقى.

إلهى! لا تعذّبنى فإنّى
مقرّ بالّذى قد كان منّى
فكم من زلّة فى الخطايا
غفرت وأنت ذو فضل ومنّ
يظن الناس بى خيرًا وإنّى
لشرّ الناس إن لم تعف عنّى
ومالى حيلة إلّا رجائى
لعفوك إن عفوت وحـ[illegible]

والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلّم.

أبو سلمان
سراج الاسلام حنيف

فهرس



(گلستان پریس سرگودھا فون 61036)